
نظام الإسلام
العقيدة والعبادة
محمد المبارك
242682
دار الفكر
http://al-maktabeh.com



نظام الاسلام

نظام الإسلام

العقيدة والعبادة

محمد المبارك

عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق سابقاً
رئيس شعبة الدراسات الإسلامية في جامعة أم درمان الإسلامية

دار الفكر

الطبعة الأولى

١٩٦٨ م —١٣٨٨هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله خالق العالم ومبدع سننه ومقدر نظامه ، والصلاة والسلام على رسله الذين اصطفاهم لهداية البشر ، وعلى من ختم به الرسل وبرسالته الرسالات ، ليكون للعالمين نذيراً ، وليكون المثل الاعلى والقدوة المثلى لجميع بني الانسان ، على اختلاف العصور والازمان .

وبعد فان الحاجة الى كتاب يعرف بالاسلام تعريفاً شاملاً صحيحاً حاجة عامة ملحة لا تسدها الكتب الكثيرة التي تعرف بجوانب من الاسلام ولو كانت جيدة في موضوعها . ورغبة الناس على اختلاف مقاصدهم في معرفة الاسلام معرفة محيطة شاملة شديدة ، فمنهم من يتطلع الى معرفته بدافع التشوق الى المعرفة ، ومنهم بحافز اختيار مذهب له في هذه الحياة ، ومنهم من يريد تحكيمه في سلوكه وتطبيقه في حياته . وهؤلاء جميعاً سواء أكانوا من أبنائه ام من غير أبنائه ومن المؤمنين به ديناً إلهياً أم من غير المؤمنين به على انه كذلك ، يتطلعون الى معرفة

حقيقته . بل ان أبناءه أشد حاجة الى معرفته ، لا لان فريقاً كبيراً منهم يجهلونه بل لان عندهم صورة عنه تخالف حقيقته ظنوه إياهـا وحكموا عليه بنتيجة ذلك أحكاماً خاطئة بعيدة عن الحق ، فهم لا يعرفونه الا من خلال العادات والتقاليد ولم يسمعوا به الا من أفواه العوام والعجائز ، ومن تصرفات الجهلة والمخرفين .

ان أحق الناس للتطلع لمعرفة الاسلام وأجدرهم بالبحث عنه **المسلمون** ، وأبناء الشعوب الاسلامية الذين أصبح الاسلام جزءاً من تاريخهم وحياتهم ، مهما يكن موقفهم من الاسلام ، بل **الذين يدينون كذلك بغير الاسلام من المواطنين** الذين يعيشون مع المسلمين من أبناء هذه الشعوب ، ليعرفوا دين جيرانهم ومواطنيهم ، وليعرفوا مواطن الالتقاء بينهم وبينهم ، ومواطن الاشتراك ، بل أقول ان **الانسانية** اليوم بعد أن اتصلت وشائجها وتوثقت روابطها محتاجة الى ان يعرف بعضها بعضاً ، وان ديناً كالاسلام يدين به مئات الملايين في شتى بقاع الارض ولا يزال له تأثير في نظم حياتهم وأنماط تفكيرهم وطرائق سلوكهم جدير أن يعرفه الناس ، وهذه المعرفة عنصر ضروري لامكان الالتقاء والتعاون الانساني .

وان أحق الناس جميعاً ان يعرفوا هذا الدين ، بل أن يعرّفوه للناس وان يبحثوه ويتعرفوا لجميع جوانبه وآفاقه هم **العرب** لانه يكوّن الجزء الضخم من تاريخهم ، وهو ينبوع حضارتهم التي عرفوا بها ، ويكوّن مع اللغة الجزء المشترك الاكبر فيما بينهم . ولانه كذلك المنطلق لانتشار لغتهم وثقافتهم في أفق أوسع وأبعد من دائرة قوميتهم ،

فهو الصلة بينهم وبين شعوب كثيرة من العالم ، وهو الذي يمكن ان يصبغ حضارتهم الحديثة بلون خاص بهم يظهر ذاتيتهم واستقلالهم ولو اشتركوا مع الشعوب الاخرى في كثير من جوانب الحضارة ، وهو الذي يحول دون ذوبانهم في تيارات الامم وخضم المذاهب في العصر الحديث .

ولذلك كله كان من أكبر الخيانة لهذه الامة العربية إخفات صوته ، وإخفاء معالمه ، وإضاعة تراثه ، وإبعاد تأثيره . ولا يفعل ذلك الا من يريد إلحاق العرب بغيرهم ، وإذابتهم في كيان غريب عنهم ، وإضاعة ذاتيتهم ، وإضعاف روابطهم فيما بينهم ، وقطع أسبابهم بالشعوب المحبة والموالية لهم ، ولا يفعل هذا الا شعوبي حاقد او صهيوني ماكر او مستعمر فاجر او خادم مستأجر لاحد هؤلاء او لهم جميعاً لارتكاب مثل هذه الجريمة الانسانية الكبرى .

المسلمون والمسيحيون :

ومن الغريب ان يقال او يظن ان في دراسة الاسلام والبحث فيه ونشر تراثه وتنمية الجانب الروحي في أبناء المسلمين عن طريقه او في دراسة نظمه وإحياء تشريعه والاستفادة من توجيهاته افتئاتاً على المواطنين من غير المسلمين ، وعلى وجه التحديد على المسيحيين بالنسبة للبلاد العربية .

أظن ان الوقت قد حان لاعتبار ان في تراث الاديان السماوية بوجه عام وفي أصول الاسلام والنصرانية ومبادئها المشتركة من الايمان بالله

الخالق وبالحياة الخالدة الابدية وبمسؤولية الانسان وبالعنصر الروحي القابل للنمو في الانسان ، دواءً لقلق الانسانية ولما هي فيه من حمى المادية والصراع الناشىء عن تأليه الاهواء والإعراض عن الله وعبادته ونسيان الموقع الحقيقي للانسان في الوجود . وأظن انه يجب ان نستقبل مرحلة جديدة تتعاون فيها الاديان ذات الاصول السماوية والجذور الالهية ، ولاسيما الاسلام والنصرانية ، أمام طغيان المادية العارمة ، والالحاد الماحق لخصائص الانسان . ففي انتصار أحدهما او كليهما على المادية المؤلـَّهة في أديان بشرية مصطنعة جديدة انتصار للانسانية نفسها وانتصار للخير على الشر « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله »[١] .

لم يعد الصراع الاساسي في العصر الحاضر صراعاً بين الاديان بل بين الدين واللادين ، بين تأليه الانسان وتأليه الرحمان .

يجب ان نفرغ نهائياً من الاتفاق على ان اهتمام أهل كل دين بالمحافظة على أبنائهم في منجى من موجة **المادية الملحدة التي تؤله الانسان في غرائزه او في عقله او في فرد من أفراده او في طبقة من طبقاته او في هيئته الحاكمة** او في غير ذلك من الصور ليس معناه شن الحرب على أبناء

---

(١) هذه الآية وردت في القرآن الكريم بمناسبة وعد الله المسلمين بأن النصارى (الروم البيزنطيين) سينتصرون على المجوس الوثنيين (وهم الفرس يومئذ) ذلك ان المسلمين حزنوا حين انتصر المجوس على أهل الكتاب وفرح مشركو العرب فنزلت الآيات الواردة في أوائل سورة (الروم) : الم . غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ، لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ... الخ

الدين الآخر . فخير لابناء كل دين ألا يخرج أبناؤه عبيداً لهذه الوثنيات الجديدة كافراً بخالقه جاحداً بأنعمه لانهم حينئذ يمكن ان يجدوا صعيداً يلتقون عليه وملجأ يعتصمون به من كارثة احتراق الانسانية بنيرانها ودمارها بطغيانها .

قلق الانسانية في العصر الحديث :

ان حضارة العصر الحديث أدت للانسان خدمات عظيمة وأسدت اليه أيادي جليلة فاكتشف الانسان الكثير من سنن الكون وأسراره ولا يزال يسير ، واتخذ من اكتشافه هذا وسيلة لترقية صناعته واستثمر علمه وصناعته للترفيه عن نفسه وتخفيف مشاق الحياة وسرعة السير فيها حتى بلغ في ذلك مبلغاً كبيراً . ولا يزال البشر يتنافسون في كسب الجديد من هذه الوسائل التي تزيد في الملذات وتخفف العناء والمشقات . ولكن ذلك كله لم يكسب الانسان أمناً وطمأنينة بل زاده تلظياً وقلقاً ، فلا يزال الصراع بكل ما فيه من غرائز القتال والتغلب والسلب على أشده بين بني الانسان ، بين الافراد ، وبين الطبقات ، وبين الشعوب والأقوام ، وبين الدول والكتل والمعسكرات . لقد ارتقت الحضارة الحديثة بما بين أيدي البشر من وسائل وآلات ، ولم تستطع ان ترتقي بالانسان نفسه حتى يكون أكثر انسانية او أكثر سمواً ومثالية وأرفع أخلاقاً . ولو أحصينا ما يحدث في عصرنا من جرائم القتل وازهاق الأرواح والتعذيب والتنكيل والتعدي على الانسان في نفسه وماله وعرضه وشرفه وسائر حقوقه سواء أكان ذلك من قبل الأفراد أم الدول وسواء أخذ صبغة الشرعية القانونية أم لم يأخذ ، لوجدنا اننا فقنا في هذا العصر

وتجاوزنا ما حدث في جميع العصور السابقة .

ما فائدة هذه الحضارة ومكاسبها اذا لم يصل الانسان الى الأمن والطمأنينة والسعادة ، اذا لم ترتق النفس الانسانية والضمير الانساني وروح التعاون بين البشر .

لم يستطع أي مذهب من المذاهب العقائدية في هذا العصر ان يوصل الى هذه النتيجة بل حتى ان يقرب الناس منها فلا الديمقراطية الغربية وحدها ولا الماركسية بألوانها ولا الوجودية استطاعت ان تخفف المآسي بل ربما كانت سبباً في زيادتها .

ليفسح المجال للدين ان يسهم في حل الأزمة وتخفيف قلق الانسانية بربط الانسان بالله بدلاً من ربطه بآلهة مادية تزيد من ثورة غرائزه ، وبإشعار الانسان بموقعه من خالقه وبمسؤوليته النهائية أمامه بدلاً من ان ان يقيم نفسه لنفسه إلهاً فيستعلي وتصبح غرائزه الوحشية وأهدافه المادية مقدسة لا تفتأ تطلب الضحايا . دعوا على الأقل الصراع بين عبودية الانسان لله وخضوعه لغرائزه يأخذ مجراه الطبيعي بدلاً من أن تتركوا تلك الغرائز الثائرة وحدها في الميدان .

ولتتنافس الأديان حينئذ ، وأفضل الأديان هو ذلك الذي يستطيع أن يكون أقدر على التخفيف من مآسي الانسانية وقلقها وحيرتها وجرائمها مع الابقاء على مكاسبها الفكرية والاجتماعية والعملية .

وعلينا نحن المسلمين حينئذ ان نقدم الاسلام للناس ليعرفوه ويدرسوه ولينظروا في طريقته في معالجة مشكلة الانسان الكبرى وما دونها من

مشكلات تتفرع عنها لعلهم يجدون فيه حلاً لأزمتهم وفي خطته هداية الى سعادتهم .

ما هو الاسلام ؟

ومن الغريب العجيب انك لو أردت ان تعرّف مستعلماً عن الاسلام يرغب في أن يأخذ صورة كاملة تامة عن الاسلام في معالمه الأساسية وخطوطه الكبرى ليستطيع ان يوازن بينه وبين الأديان الأخرى والمذاهب الاجتماعية المستحدثة لأعياك ان تجد كتاباً موجزاً جيّداً يضم شتات الموضوع ويحافظ على جميع جوانب الاسلام ويراعي ما بينها من نسب دون الدخول في الخلافات المذهبية ولا إقحام الآراء الشخصية ؛ على غرار تلك الكتب التي تزخر بها مكتبات الغرب ، في عرض كل دين او مذهب ، في كتاب كبير او صغير ، يعطيك صورة تامة شاملة عن ذلك الدين او المذهب . بل لعلك لو طلبت الى عدد من العلماء ان يقدموا لك هذه الصورة الكاملة الموجزة لحار بعضهم من أين يبدأ ومن أين ينتهي ، وماذا يأخذ وماذا يدع ، وما هي المعالم الهامة التي يجب إبرازها ، والتفصيلات الثانوية التي لا ضير في إغفالها . وربما قدم بعضهم جانب العقيدة واقتصر عليه او اهتم بالشعائر وقواعد السلوك او عني بالنظم والتشريعات الاجتماعية .

وهنا تبدو لنا الحاجة الملحة بل الضرورة لعرض الاسلام عرضاً كاملاً شاملاً مأخوذاً من مصادره الأساسية دون تدخل الآراء الشخصية بقدر الامكان .

الصور المعروضة عن الاسلام :

ويزداد شعورنا بشدة الحاجة الى هذه الصورة الكاملة الصحيحة اذا لاحظنا ان هناك صوراً معروضة في أذهان الناس او في الكتب تتصف تارة بالتشويه والانحراف وتارة بالتفكك والتجزأ وان المسلمين في واقع حياتهـــم في العصر الحاضر وفي كثير من العصور يعطون صورة سيئة كذلك ، مشوهة او ناقصة ، تتفاوت بعداً عن الصورة الحقيقية .

اما الصورة المشوهة :

فهي تلك الصورة التي تجسد فيها الاسلام في حياة المسلمين في العصور الأخيرة فكراً واعتقاداً وعملاً وسلوكاً فالباحث عن الاسلام في أذهان المسلمين في هذه العصور الأخيرة يجد تشويهاً لمفهوم القضاء والقدر وللتوكل والزهد وللعبادة وغيرها من المفاهيم الاسلامية .

فالقضاء والقدر في أذهان كثير من المسلمين استسلام للواقع وخضوع له وسكوت وصبر عليه باعتباره إرادة إلهية . في حين ان الاسلام وفهم المسلمين في العصر الأول لم يكن كذلك ، فالصحابي الذي أراد الخروج والفرار من بلد الطاعون قال أفر من قدر الله الى قدر الله ، جواباً لمن قال له أتفر من قدر الله ؟ بل ان ما يقع من المظالم والمفاسد — وهو القضاء والقدر — أُمِر المسلمون بانكاره وعدم الصبر عليه وتغييره ، بل أحيانا الثورة عليه ومقاتلة أصحابه . ففكرة الثورة على الواقع الفاسد لتغييره واضحة في القرآن في مثل قوله تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا مـــا بأنفسهم) وفي أقوال النبي ﷺ كقوله (إذا رأى

الناس الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك ان يعمهم الله بعقاب) . ولو كان السكوت على الواقع الفاسد من لوازم الاعتقاد بالقضاء والقدر لكان الرسول ﷺ أولى من يفعل ذلك ، مع ان الواقع انـــه بعث لازالة الوثنية والشرك ، وأنواع المظالم والمفاسد ، سواء أكانت هذه الازالة بالدعوة السلمية ام بالحرب اذا اقتضت الظروف ذلك . هذا ما فهمته الأجيال الأولى من المسلمين ، ومن الصحابة ومن تبعهم من علماء المسلمين وأئمتهم . يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني وهو من كبار الدعاة الى الله على فقه وبصيرة (أغالب الأقدار بالأقدار) وقد نقل ابن تيمية هذه الجملة عنه في معرض التأييد والاستحسان .

أما **التوكل** فقد فهمه المتأخرون في عصور الانحطاط انه ترك الأسباب ولم يكن كذلك ما يوحي به القرآن كتاب الله ولا أحاديث النبي الكريم وأفعاله ولا فهم الصحابة وسيرتهم . فقد ورد في القرآن الكريم (فاذا عزمت فتوكل على الله) فجاء التوكل في الآية الكريمة تالياً لعزم الانسان . وورد فيه كذلك الأمر بالدفاع وقتال الأعداء والسير في الأرض والابتغاء من فضل الله اي الكسب ولو كان معنى التوكل عدم الأخذ بالأسباب لما أمر الله تعالى بهذه الأوامر . وفي الحديث الصحيح : « ان الله أنزل لكل داء دواء فـاذا أصاب الدواء الداء برأ باذن الله » . وفي رواية : « ياعباد الله ألا فتداووا» . وورد كذلك في حديث آخر : « إذا قامت القيامة على أحدكم وفي يده فسيلة فليغرسها» . وأمثـــال هذه الأحاديث كثيرة وفيها كلها توجيه الانسان للعمل والأخذ بالأسباب . وقال عمر بن الخطاب : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني وقد علم ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وان الله انما يرزق الناس بعضهم ببعض .

والشواهد على الموضوع أكثر من ان تحصى فالفكرة الشائعة بين عوام المسلمين من ان الانسان المتوكل على الله لا يعمل ولا يتخذ الأسباب ، التي جعلها الله وسيلة للوصول الى نتائجها ، وان من التوكل ترك هذه الأسباب مطلقاً ، ان هذه الفكرة دخيلة على الاسلام ، وقد روجها بعض منحرفي المتصوفة .

وقد أدت هذه الفكرة نفسها الى فكرة مشوهة عن **الزهد** فالزهد في الاسلام هو جعل الآخرة وموازينها مرجحة على الدنيا وموازينها وايثارها عليها وتفضيلها ، وألا يكون الانسان عبداً للمال وللملذات الدنيوية . وليس معناه عدم التملك ، ولا عدم الأخذ بالحلال من الملذات ، ولا ترك الاشتغال بالكسب عن طريق الزراعة او الصناعة او التجارة او العمل بوجه عام . بل قد ورد التنديد بهذا الاتجاه في القرآن والحديث ففي الكتاب الكريم : (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) وفيه أيضاً : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) . وقد نهى النبي عليه الصلاة والسلام بعض الصحابة الذين كانوا عزموا ان يعتزلوا الدنيا ويعكفوا على العبادة وقال لهم : ولكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني . وعرف عدد من الصحابة بنشاطهم في التجارة او الزراعة دون أن يكونوا موضع نقد من النبي ﷺ او من بقية الصحابة ولكن ورد من جهة أخرى في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس. »

وشاب **عقيدة التوحيد** التي كان عليها بناء الاسلام ودعوته شوائب كثيرة ، فغلا الناس في تعظيم الصالحين غلواً تجاوزوا فيه الحد المشروع في الاسلام . فالصالحون في الاسلام تطلب مجالستهم لأن حالهم تذكر بالله وتقرب منه ، ويستفاد من علمهم اذا كانوا علماء . ولكن الناس تزيدوا في ذلك وغلوا حتى أصبحوا يبتغون عندهم شفاء المرضى وتفريج الكرب وزيادة الرزق ويطلبون منهم ما لا يطلب الا من الله ، يسألونهم ذلك مباشرة ، سواء أكانوا أحياء أم أمواتاً . ولئن كان الشرع أجاز طلب الدعاء من الصالحين بل من كل مؤمن فان الذي شاع وعم ليس هو طلب الدعاء منهم وانما الطلب منهم او اتخاذهم واسطة ووسيلة لا يدعى الله الا عن طريقهم مع ان الله في كتابه قال : (ادعوني أستجب لكم) وقال مخاطباً رسوله ﷺ : (وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان) وقال سبحانه : (واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه) وندد الله تعالى بمن كان قبلنا اذ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم) وورد في الحديث الصحيح : اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله .

ثم زاد الناس على ذلك فنسبوا اليهم الكثير من الكرامات والخوارق ، حتى غدت حياتهم كلها منسوجة من هذه الخوارق ، ونسبوا اليهم التصرف بالكون والتسلط عليه بأنواع من التسلط . ولئن كان مبدأ معجزات الأنبياء وكرامات الصالحين معترفاً به في الاسلام ، فانه استثناء من الاصل الذي هو جريان سنن الله المعروفة ، ولا يعول على الخوارق لاثبات التقوى وانما تثبت التقوى بالعمل الصالح ، ولا يعول عليها كذلك لجعل صاحبها متبعاً فيما يقول ، وانما تقاس الأقوال في صوابها وخطئها

بموازين الكتاب والسنة . والولي الصالح الذي قد تجرى على يده الخوارق ليس معصوماً عن الخطأ ولا عن الذنوب . أضف الى هذا كله ضروبا من الاعتقادات الفاسدة والخرافات والحشويات التي أخلت بصفاء العقيدة الاسلامية .

وأصاب **العبادة الاسلامية** كذلك التشويـــه فأصبحت في نظر بعض الناس هي وحدها طـــاعة الله وغفلوا عن ضروب الطاعات الأخرى كالجهاد واغاثة الملهوف والدعوة الى الله ومحاربة الظلم والظالمين وغير ذلك مما هو في نظر الاسلام من العبادات بل من أجلّها . وهكذا عزلوا العبادة وفصلوها عن الحياة ، بل جعلوها أحيانا وسيلة لتحقيق أغراضهم الدنيوية ، وبديلاً عن الاسباب . فاكتفوا بالدعاء وقراءة بعض الاوراد لدفع الأعداء بدلاً من اتخاذ السلاح والقتال ، او لجلب الرزق بدلاً من السعي والعمل . مع ان الكل من الأمرين موضعه في الاسلام ، ويجب الجمع بينهما ، بأن يتخذ المسلم الأسباب ويتوكل على الله لا عليها في نفسه وفي قلبه . ولذلك غلب على العبادات الروح الشكلية الظاهرة في عصور التشويه والانحطاط .

وغرق الناس **في مذهبية ضيقة** باتباع علمـــاء مذهبهم من المؤلفين المتأخرين خاصة ، وشاع ذلك في أوساط طلاب العلم ، حتى أورثهـم أمرين : **احدهما** الجمود وجهل الأدلة من الكتاب والسنة وترك العـودة اليهما لحل المشكلات ، والتقاعس عن تحصيل درجة الاجتهاد بالنسبة الى الخاصة من العلماء ، **وثانيهما** العصبية الشديدة ومجافاة أهـل المذاهب الأخرى والاعتقاد بخطئها ، وخطأ المتبعين لها . وهذا ينطبق على المذاهب

الفقهية والمذاهب الكلامية . ونقصد بهذه المذاهب تلك التي لم ينحرف أصحابها عن الاسلام ولم يخرجوا عن جادة الكتاب والسنة ، ولم ينكروا أصلاً من أصول الدين ، وانما كانت خلافاتهم في الجزئيات والفروع مما لا يخرجهم عن دائرة الاسلام .

لقد أدى وقوف الاجتهاد وإسدال حجاب بين العلماء ومصادر الشريعة الاساسية القرآن والسنة ، والاكتفاء بآراء المتأخرين من فقهاء المذاهب ، الى اتصاف الفقه الاسلامي بالركود ، والبعد عن حلول المشكلات حلاً يتناسب مع روح الشريعة الاسلامية ومبادئها العامة وقواعدها الكلية المتجلية في نصوصها الاصلية .

نتائج التشويه :

ان هذه الصورة التي انتهى اليها الاسلام في أذهان المسلمين وفي حياتهم تختلف عن الصورة الاصلية الصحيحة بما دخل عليها من عناصر غريبة ، وما اعتراها من تشويه ، مع بقاء معالم الاسلام الاساسية . وقد أدى هذا التشويه والانحراف الى ضعف المجتمع الاسلامي فكرياً واقتصادياً وعسكرياً ، كما أدى جهل الاسلام الحقيقي واساءة الظن به الى نفور كثيرين من أبناء العصر الحديث وابتعادهم عن الاسلام وإطلاق أحكام خاطئة عليه واتخاذ مذاهب أخرى يظنون انها تحل مشكلاتهم .

اما الصورة المجزأة المفككة :

فقد كانت نتيجة دراسة جوانب الاسلام المتعددة – التي كانت تؤلف في عهد الرسالة وحدة متماسكة لا تنفصل – منعزلاً بعضها عن بعض . فدراسة **الجانب العملي** – سواء أكان في مجال العبادة ام العلاقات الاجتماعية (المعاملات) – تولاه الفقهاء ، ودراسة **الجانب الاعتقادي** تولاه المتكلمون وعلماء العقيدة ، وتولى أهل التصوف والاخلاق **الجانب النفسي الاخلاقي** . وكل فئة من هذه الفئات أعطت عن الاسلام صورة الجانب الذي تولت درسه وبحثه فضاع بذلك الارتباط الحيوي والتأثير المتبادل بين هذه الجوانب .

أضف الى ذلك ان كل جانب من هذه الجوانب أيضاً ، يبدو كذلك مجزأ مفككاً . فأحكام الاموال في الفقه مثلاً موزعة بين أبواب مختلفة متباعدة من الفقه ، فالزكاة والمعادن والركاز والبيع والاجارة والشركات بأنواعها والشركات الزراعية والنفقة والميراث والخراج والجزية والتسعير والربا وغيرها من الموضوعات المتعلقة بالجانب المالي والاقتصادي مفرقة في كتب الفقه بحيث لا يتمكن الباحث ان يكوّن فكرة شاملة تامة عن هذا الجانب .

وهكذا تبدو لنا شدة **الحاجة الى صورة عن الاسلام مبرأة من الشوائب والتشويه شاملة لجميع جوانبه وأجزائه مع ترابطها وحفظ نسبها ومواقعها .**

ان هذه الصورة ليست جديدة ولا مبتدعة :

فالقرآن الكريم كثيراً ما عرض رسالة الاسلام عرضاً مجملاً شاملاً في الكثير من آياته كقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا **اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير** لعلكم تفلحون) وقوله (قل أمر ربي **بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد**) وقوله : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولله عاقبة الأمور) وقوله : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم **الكتاب والميزان** ليقوم الناس **بالقسط** وأنزلنا **الحديد** فيه بأس شديد ومنافع للناس **ولينصرن الله من ينصره** ورسله بالغيب ان الله قوي عزيز) . « الحديد ٢٥ »

وكذلك كان فهم الصف الاول من الصحابة المجاهدين في سبيل رسالة الاسلام فقد كان فهمهم عميقاً شاملاً . استمع الى هذا التلخيص الرائع الذي لخص به أحد الصحابة الاسلام ، وهو ربعي بن عامر حين دخل على قائد الفرس رستم في القادسية للمفاوضة قبل بدء القتال ، وبعد ان أراد القائد الفارسي ان يثنيه وأصحابه عن القتال باغرائهم بالمال ، فكان جواب هذا الصحابي : ما لهذا جئنا ، انما جئنا لنخرج الناس من **عبادة العباد الى عبادة الله** ، ومن **جور الاديان الى عدل الاسلام** ، ومن **ضيق الدنيا الى سعتها** . فقد شملت الفقرة الاولى تحرير الانسان من جميع العبوديات ويدخل في ذلك التحرر السياسي والاجتماعي وتمحيض عبودية الانسان لله وحده ، ويدخل في مضمون الفقرة الثانية تقويض الانظمة الاجتماعية الجائرة وإقامة نظام اجتماعي عادل ، ويشمل ذلك أحكام الاسلام في التشريع المالي والسياسي والاجتماعي ؛ وتشمل الفقرة

الثالثة الجانب النفسي والاخلاقي يجعل أهداف الانسان أبعد مدى وأعلى من الأهداف المادية القريبة ذات الاطار الضيق وغير ذلك من المعاني .

ولو قرأت الرسائل المتبادلة بين الخلفاء الراشدين وعمالهم (أي ولاتهم) لوجدت ذلك الوعي العميق والفهم الشامل لرسالة الاسلام وأهدافه ، وكان الاسلام بالنسبة اليهم **قناعة عقلية** بحقائقه الايمانية **وفهماً وتطبيقاً لاحكامه** العملية سواء في مجال العبادات او المعاملات (التشريع الاجتماعي) **وشعوراً نفسياً** بالمسؤولية أمام الله في تنفيذ تلك الاحكام ، تعلقت بأنفسهم ام بغيرهم . فكانت هذه الجوانب الثلاثة العقلي والعملي والنفسي تؤلف وحدة لا تنفصل ولا تنفك . وان انفكاكها وانقسامها فيما بعد الى (كلام) و (فقه) و (أخلاق او تصوف) كان له نتائج أدت الى تجزئة النفسية والعقلية الاسلامية .

فالهدف الذي نرمي اليه من تجميع عناصر الاسلام العقلية والعملية والنفسية ، وجوانبه الايمانية والعبادية والأخلاقية والتشريعية في وحدة مركبة كاملة ليس هدفاً جديداً ولا غريباً عن الاسلام ، بل هو هدف إسلامي أصيل .

وقد أدرك هذا المعنى علماء الصدر الاول من الاسلام وكبار الأئمة المجتهدين المشهورين . وكان في كل عصر من علماء الاسلام من يسير على هذا النهج في تعليمه لتلاميذه وفي تأليفه . وكأن الغزالي في إحيائه قصد الى هذا المعنى فضمنه جانب الايمان والعقيدة بل أشرب به كتابه كله ، وضمنه أحكاماً فقهية ، وخص جانب الصلة بالله ومعالجة أحوال

القلب او النفس بعناية خاصة[1] . ومن أحسن من أدرك هذا المعنى وألّف فيه العالم الهندي العظيم أحمد بن عبد الرحيم الملقب بشاه ولي الله الدهلوي عليه رحمة الله في كتابه (حجة الله البالغة) .

اننا نلح على ضرورة تقديم هذه الصورة الشاملة في إطارها ، الموضحة لجوانب الاسلام كلها ، من **عقيدته** التي يرتكز عليها وتتضمن النظرة العامة الى الوجود التي يدعو اليها ، **والعبادة** التي هي رياضة العقيدة والمحرك المستمر لاستشعارها ، ومن قواعد السلوك في الحياة **او نظامه الاخلاقي** ، ومن **قواعد تنظيم المجتمع او التشريع** المنظم **للاسرة وللحياة الاقتصادية وللحياة السياسية** او الدولة . ان هذه الصورة الشاملة هي التي تعرف بالاسلام تعريفاً صحيحاً ، وتميزه من غيره من المذاهب والنظم ولو التقت معه في جزئيات .

ولا يغني عن هذه الصورة الجامعة ، والنظرة العامة الشاملة ، دراسة الاجزاء منفصلة ، كدراسة الفقه وحده معزولاً عن العقيدة والاخلاق ، ودراسة علم الكلام لتعليم العقيدة ، لان هذه الدراسة المنفصلة لا تري جوانب الارتباط بين الاقسام ، ولا التأثير المتقابل بينها . فللنظام

---

(١) هذا لا يمنع ان يكون على هذا الكتاب ، على عظم قدره ، مآخذ منها كثرة الأحاديث الضعيفة وغير الصحيحة ، ومنها شططه الصوفي أحياناً باتخاذ وسائل وأساليب في تهذيب النفس ليست من جنس ما ورد في الشرع لتحقيق هذه الغاية . وقد أحسن الحافظ العراقي جزاه الله خيراً فخرج أحاديثه وبين درجتها من الصحة وللاحياء مختصرات جيدة منها لابن الجوزي ولجمال الدين القاسمي وهو بالجملة كتاب جليل الفائدة على ان ينتبه لما عليه من مآخذ .

الاقتصادي في الاسلام مثلاً أساس اعتقادي ينبثق عنه ، وأساس أخلاقي يرتكز اليه ، كما ان للعقيدة نتائج اقتصادية ، وهكذا بقية الاقسام والاجزاء .

التسمية :

وبعد هذا ما الاسم الذي نطلقه على هذه النظرة العامة الشاملة ؟ وهي لو أردنا الاختصار ودقة الدلالة ، لسميناها **الاسلام** في مقابل النصرانية واليهودية والشيوعية وغيرها من الاديان او المذاهب الاجتماعية . ويمكن لمن يؤلف في هذا الموضوع ان يتخذ من اسم الاسلام عنواناً لكتابه اذا كان هذا هو مقصوده .

ولكننا لو وضعنا في الجامعات مادة بهذا الاسم لاشتبه الامر وأثار بعض الاستغراب . ذلك ان الدراسات الاسلامية تشمل مثلاً بحسب الاصطلاح المتعارف عليه (الفقه) وفيه الاحكام التفصيلية (والتوحيد او العقائد) ويشمل العقائد الاسلامية و (الاخلاق والآداب) وكل واحد منها يدخل تحت عنوان (الاسلام) وهو لفظ عام فلو وضعنا الى جانب هذه المواد مادة للدراسة سميناها (الاسلام) لكان ذلك موضع استغراب وتساؤل عن المقصود به .

يقترح بعضهم ان تسمى هذه المادة (الحضارة الاسلامية) ولكن هذا التعبير يدل على ما تجسد فيه الاسلام خلال العصور التاريخية من أشكال في واقع الحياة كالحركة العلمية والحياة الاقتصادية والدولة الاسلامية فيدخل في مضمونها عنصر تاريخي تطبيقي قد يقترب أو يبتعد من صورة

الاسلام المثالية ومبادئه النظرية المجردة. في حين ان مقصودنا عرض الاسلام كما ورد في مصادره الاصلية من الكتاب والسنة او كما أوحى الله به وبلغه رسوله ﷺ بصرف النظر عن تطبيقه التاريخي.

ويقترح آخرون أن تسمى (النظم الاسلامية) ونرى ان هذا التعبير بصيغة الجمع يفهم منه الدلالة على ما في الاسلام من أنظمة كنظام الأسرة ونظام الدولة، ونظام الاقتصاد والمال أو تفصيلها كنظام الزواج ونظام الميراث ونظام القضاء ونظام الحسبة ومجموعها يفيد الجانب التشريعي الاجتماعي من الاسلام ولا يدل حينئذ على العقيدة ولا على العبادة ولا على الاخلاق.

ونرى ان يطلق على هذه المادة (نظام الاسلام) لأن كلمة (نظام) بالافراد تفيد ان لكل دين أو مذهب طريقة او نظاماً ينظم به أجزاءه وأقسامه ومبادئه النظرية والعملية. ففي العالم أنظمة متباينة، فنظام للبوذية، ونظام للشيوعية، ونظام للديموقراطية، ونظام للمسيحية وهكذا. وتشعر كلمة نظام بانتظام العقيدة والاخلاق والعبادة والتشريع في سلك واحد يربطها به الاسلام نفسه، وهي تقابل ما في بعض اللغات الاوروبية من كلمات تركب بإضافة (Isme) التي تضاف الى المذاهب أو تصدر بلفظ (Système) الدال على الطريقة المتميزة أو النظام الذي يستقل به دين أو مذهب بوجه عام أو في ناحية خاصة تضاف اليه.

ادخال هذه المادة في الدراسات الجامعية :

حينما أنشئت في جامعة دمشق (الجامعة السورية يومئذ) كلية الشريعة سنة ١٩٥٤ ، وكنت أحد أعضاء اللجنة التي وضعت خطة المناهج اقترحت إدخال هذه المادة في منهج السنة الاولى لتعطي الطالب منذ البداية الصورة الشاملة للاسلام قبل أن يدخل في التفصيلات الجزئية لكل مادة من المواد التي تستوعب كل واحدة منها جانباً من جوانب الاسلام . وقبلت اللجنة هذا الاقتراح وأقرته وأخذت منذ ذلك الحين أدرس هذه المادة فيها .

في الازهر :

وفي سنة ١٩٦١ اشتركت في لجان تطوير الأزهر التي وضعت خطط المناهج الجديدة لمختلف الكليات وأدخلت كذلك هذه المادة في جميع الكليات .

ثم أتيح لي كذلك ان أشترك في تخطيط مناهج **الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة** ثم **في كلية الشريعة بمكة المكرمة** ثم **في جامعة ام درمان الاسلامية** في السودان وتم إدخال هذه المادة الجديدة في هذه الجامعات .

وأرى ان كليات الآداب ولاسيما أقسام التاريخ والفلسفة واللغة العربية وكلية الحقوق في البلاد العربية والاسلامية عامة جديرة بأن تدخلها في مواد تدريسها ، لأن على فهم مبادىء الاسلام يتوقف فهم التاريخ الاسلامي والفلسفة الاسلامية وتطور الأدب العربي ، كما انها أساس لفهم التشريع الاسلامي فهماً عميقاً ، وان الدارسين لهذه التخصصات

التاريخية والفلسفية والحقوقية القانونية ، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين ، ينبغي ان يدرسوا هذه المادة ، لتكون دراستهم التخصصية على أساس عميق من الفهم والاستيعاب .

وقد استجابت لهذه الفكرة حينما دعوت اليها في المؤتمر الاسلامي المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٩٦٤ **جامعة الرياض** فادخلت كلية الآداب مادة (الثقافة الاسلامية) في منهاجها فاستحق القائمون عليها الشكر والتقدير .

ازالة التباس في فهم موضوع (نظام الاسلام) :

لما كانت هذه المادة جديدة بالنسبة لمناهج التعليم فقد شاب فهمها وبحثها بعض الالتباس والغموض الذي أدى الى الانحراف بها عن أصل موضوعها وعن الدقة في تحديد اطارها وأسلوب عرضها . فقد نظر اليها بعضهم على انها مادة يقصد بها بيان حكمة الاحكام الاسلامية وتعليلها فاهتموا باستنباط الحكم والتعليلات ونظر آخرون اليها على انه يقصد بها رد الشبهات والدفاع عن وجهة نظر الاسلام في مسائل متنوعة ، وغرق غيرهم في شروح وفلسفات تعرض وجهة نظرهم الخاصة او نظر غيرهم من علماء المسلمين وغير المسلمين فحاموا حول موضوع الاسلام او حول جوانب معينة منه من خلال تلك النظرات .

ان هذه الطرق كلها في معالجة (نظام الاسلام) تبعد هذا الموضوع عن هدفه وتخرجه عن جادته . والطريقة السليمة هي في محاولة الباحث جهد الطاقة **ان يعرض الاسلام نفسه من مصادره الاصلية** لا ان يفلسفه

من وجهة نظره . نعم لا بـد في هـذا العرض وفي استخراج نظرات الاسلام ومواقفه من جهد شخصي ولكن من المهم ان يظل الباحث دائماً على حذر من ان يدخل آراءه الخاصة وذلك بأن يكون عمله الدائب العودة الى النصوص الاصلية نفسها . ولا بأس بل يحسن به ان يستعين بفهم الصدر الاول من المسلمين لتلك النصوص . ولذلك يجب الحذر من إطلاق الاحكام العامة التي اعتاد الناس إطلاقها او إقحام شخصية بعيدة ، والالتزام بالقيام بعمل يتلخص في تركيب أجزاء موجودة وإبرازهـا وتنسيقها بحيث تعطي هي بنفسها الصورة الحقيقية وذلك على قدر مـا يستطيع الباحث من التجرد والبعد عن التدخل الشخصي .

مؤلفون محدثون :

ولا بد لنا من التنويه بعدد من المؤلفين الذين عالجوا هذا الموضوع وان لم يكن منطلق أكثرهم من فكرة تخطيطية سابقة للموضوع الذي عرضناه ولكنهم حاولوا عرض الاسلام في مجموع أجزائه ونواحيه او أكثرها .

من هذه المؤلفات كتاب (الرسالة الخالدة) للاستاذ عبد الرحمن عزام وكتاب (الاسلام) للاستاذ الدكتور احمد شلبي و (روح الدين الاسلامي) للاستاذ عفيف عبد الفتاح طباره و (الاسلام والنظام العالمي

الجديد) لمولانا محمد علي[1] و (الاسلام وحاجة الانسانية اليه) للدكتور محمد يوسف موسى و (هذا ديننا) للشيخ محمد الغزالي . ولكن في بعض هذه الكتب أقساماً هامة ناقصة ، وفي بعضها اضطراب في ترتيب الاقسام والاجزاء ، وفي بعضها إغفال لربط الاقسام بعضها ببعض ، ولكل منها مزاياه الخاصة كذلك .

الاسلام أو نظام الاسلام كما نتصوره :

اما الخطة التي سنسير عليها في عرضنا للاسلام أو نظام الاسلام في كتابنا هذا والتي نستوحيها من مصادر الاسلام الاساسية القرآن والسنة ومن ترتيب تكامل الاسلام في تاريخ الدعوة في السيرة النبوية تشتمل على عرض الأقسام التالية :

١ – نظرة الاسلام العامة الى الوجود أو تصوره الشامل له وهي إن شئت (العقيدة الاسلامية) ، وهي تتضمن الحقائق الكبرى التي دعا القرآن الى الايمان بها دعوة ملحة متكررة بطرائق شتى . وكذلك كان عمل الرسول ﷺ الدائب ولاسيما في الفترة الأولى من الدعوة موجهاً الى أسس العقيدة والايمان بها .

---

(١) يجد القارىء لهذا الكتاب نفثات خفيفة من آراء القاديانية في موضوع الوحي ذلك ان مؤلفه من الفرقة الاحمدية وهي الفرقة التي تعتقد ان ميرزا غلام احمد مجدد ومصلح وليس نبياً ،وهي احدى الفرقتين اللتين انقسمت اليهما القاديانية بعد موت مؤسسها وهي تظهر بوجه خاص في تفسيره للوحي في اول الكتاب وان كان قد حاول ألا يعارض رأي جمهور المسلمين معارضة ظاهرة فيها .

إن العقيدة في نظام الاسلام كما يتجلى ذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية تتصل بجميع أجزاء هذا النظام فهي الأساس الذي تبنى عليه نظرته أو نظامه الاخلاقي ، وهي التي تكون الاساس الفكري لعقلية المسلم ، والاساس النفسي لسلوكه ، ومنها كذلك تنبثق نظرته الى الحياة الاقتصادية والحياة السياسية ، وعلى أساس فلسفتها يبنى نظامها .

وخلاصة الأمر إن مضمون العقيدة الاسلامية له تأثير كبير في الحياة الاسلامية سواء الفردية ام الاجتماعية . ويلاحظ انها تتخلل جميع سور القرآن بلا استثناء ، وانها تتخلل جميع أحكام الاسلام الاخلاقية والتشريعية . فلا تستطيع أن تعزل قواعد التنظيم الحقوقي الاجتماعي الموجودة في القرآن عن هذا العنصر الايماني الذي يتخللها ويحيط بها . نعم انه يمكنك أن تجرد هذه القواعد الحقوقية ، لكنك تكون قد عطلت الجهاز المتحرك عن حركته وافقدته روحه وحيويته وقطعت شرايينه وأعصابه وأصبح قطعة مفصولة عن أصلها للتحليل والتشريح لا آلة فعالة من جهاز كبير يعمل .

على أساس هذه النظرة سنضع العقيدة في موضعها من نظام الاسلام ، وهي اللبنة الاساسية في بنائه ، وهي التي تمد باقي أجزائه بالحياة وتحدد اتجاهاتها ومعالمها . وتتضمن العقيدة الحقائق الكبرى التي دعا القرآن الى الايمان بها أو التي وجه الانسان وأرشده اليها وهي تصور الوجود ، وجود الله الخالق ووجود الكون والانسان والصلة بين الله والكون والانسان ، وكذلك الحياة وما وراءها من حياة أخرى او المصير والجزاء والنبوة التي هي طريق معرفة هذه الحقائق الكبرى .

٢ – العبادة :

ويشتمل القسم الثاني من نظام الاسلام على ما شرع الاسلام من طرائق لاذكاء عقيدته ونقلها إلى حيز الأعمال الحسية والمشاعر القلبية ، لاشعار الانسان بموقعه من الله الخالق ، وبمصيره ومسؤوليته ، وتلك هي العبادات بأنواعها .

٣ – الاخلاق :

أما القسم الثالث من نظام الاسلام فيشتمل على قواعد السلوك في الحياة الفردية فيما بين الانسان ونفسه ، وفي الحياة الاجتماعية فيما بينه وبين الناس ، على اختلاف نوعية علاقتهم به . كما يشتمل هذا القسم على النفسية المثالية التي جعلها الاسلام هدفاً يسعى الانسان لتحقيقه وبلوغه ، وعلى الطرائق التي يفضلها لتهذيب النفس ، وموقف الاسلام من مختلف أنواع النشاط الانساني .

٤ – التشريع او النظام الاجتماعي :

من المعلوم ان الاسلام لم يقتصر على عقيدة دعا الى الايمان بها ، وشعائر للعبادات أمر باقامتها ، وقواعد للسلوك والاخلاق حض على التزامها ، بل تجاوز ذلك وبنى على هذا كله بناء اجتماعياً كاملاً قدم للناس أسسه وهيكله العام وخطوطه الكبرى واتجاهاته العامة وأحياناً بعض تفصيلاته وجزئياته .

ويشتمل هذا النظام الاجتماعي على **تشريع الأسرة** وتحديد وظيفة

افرادها وعلاقات بعضهم ببعض ويشتمل على **نظام اقتصادي** مالي يحدد طرق الكسب وطرق الانعاش ، وعلاقات النـــاس بعضهم ببعضهم من الوجهة المالية ، وأسس التكافل والتضامن فيما بينهم ، ويحدد مفهوم الملكية ويبين قيودها ، ويفصل ما بين الفرد والجماعة في شؤون المال والتصرف . ويشتمل على **نظام سياسي** أو نظام للدولة ويتضمن مبادىء عامة للحكم والسياسة ، ويحدد العلاقة بين الحاكم وأفراد الشعب او الراعي والرعية ، وحقوق المواطنين في الدولة الاسلامية ، من مسلمين او غير مسلمين ، وموقف الدولة الاسلامية من الدول الأخرى ، ومن الافراد المنتمين اليها ، وقواعد السلم والحرب ، وتشتمل على **نظام للعقوبات** لضمان تنفيذ هـذه الأنظمة الاخلاقية والتشريعية جميعاً .

ان لهذا التشريع الشامل للأسرة والدولة ولحقوق الافراد والجماعات قواعد وخصائص يتميز بها من سائر أنظمة التشريع الأخرى ، لذلك كان من الواجب إبراز مزاياه وخصائصه والتعريف بقواعده ومبادئه العامة ، وهذا ما ينبغي تقديمه في هذا القسم من نظام الاسلام .

***

وبعرض هذه الاقسام كلها : العقيدة والعبادة والاخلاق ونظام المجتمع (الأسرة والاقتصاد والدولة) نكون قد عرضنا الاسلام كله على انـه نظام كامل للحياة ، وعرفنا هيكله العام ، وتميز لنـا بوضوح من سائر الأنظمة الاخرى ، أمكن الانسان أياً كان دينه أو جنسه أن يتصور الحضارة القائمة على أساسه كيف تكون ، ويعرف مدى صلاحيتها للبقاء

والاستمرار ، ويوازن بينها وبين غيرها فيعرف مزاياها الخاصة بالنسبة الى غيرها ليحدد موقفه منها .

طريقتنا في البحث :

ان الطريقة التي سلكتها في عرض مباحث هذا الكتاب هي الطريقة التي انتهيت اليها شخصياً ، نتيجة ممارستي للدراسات الاسلامية خلال سنين طويلة في مراجعها الأصلية ومصادرها الاساسية وفي كتبها القديمة والحديثة على اختلاف طرائق المؤلفين ومذاهبهم ولذلك لم التزم طريقة مؤلف ولا نهج باحث بعينه — سواء أكان قديماً ام حديثاً بل اخترت لنفسي بعد التجربة طريقة تعتمد على الاسس التالية :

أولاً : نصوص القرآن والسنة وذلك بتتبع جميع الآيات التي تتصل بموضوع من الموضوعات وكذلك الاحاديث الواردة في ذلك الموضوع ، فكنت أتتبعها في الصحاح الستة على الأقل مراعياً في فهم الآيات تفسير الصحابة والصدر الأول دون التأويلات الشاذة .

ثانياً : الاسترشاد بآراء السلف الاول في فهم الاسلام والاستئناس برأي من جاء بعدهم من علماء الاسلام في مختلف العصور واستعراض جملة المذاهب الفقهية فيما فيه خلاف بين المسلمين دون التقيد بوجهة نظر مذهب واحد بعينه . وقد كنت أولعت من عهد بعيد بقراءة أبواب الفقه على مختلف المذاهب في مثل كتاب بداية المجتهد لابن رشد والروضة الندية لحسن صديق خان الهندي وسبل السلام لابن حجر ونيل الاوطار للشوكاني وأعلام الموقعين لابن قيم الجوزية بالاضافة الى كتب المذاهب

الفقهية التي سبق لي الاشتغال بها في المذهبين الحنفي والمالكي ايام الدراسة وطلب العلم .

ثالثاً : الربط بين الأحكام الجزئية وجمع شتاتها واستخراج الأفكار العامة والقواعد الكلية التي تنتظمها دون التزام التصنيفات والتقسيمات التي اعتمدها المؤلفون القدامى سواء في مباحث العقيدة او الفقه .

رابعاً : بذل الجهد في ان يكون تعليل الآراء وحكمة الاحكام او فلسفتها مستخرجة من النصوص الأصلية نفسها ، من اشاراتها وقرائنها ، والبعد عن التعسف في التأويل والتعليل ، وعن إقحام تعليلات خارجية ، وعن الآراء الشاذة والتأويلات البعيدة ، سواء أكانت قديمة أم حديثة .

خامساً : صياغة الأفكار صياغة تتناسب مع المخاطبين في هذا العصر من حيث طريقتهم في التفكير وأسلوبهم في التعبير ، مع الحفاظ على المفاهيم الاسلامية دون انتقاص او تحريف .

***

وبعد فهذا جهد بشري يعتريه النقص ويشوبه الخطأ ، ولاسيما اذا كان هدفه فهم هذا الاسلام ، الذي هو من صنع الله ، وهو أشبه بالجهد الذي يبذل لفهم الطبيعة — وهي أيضاً من صنع الله — يتقدم الانسان فيه ويكتشف كل يوم جديداً ويصحح خطأ سابقاً . ولكني مع هذا أرجو ان أكون قد قدمت في هذا الباب شيئاً جديداً نافعاً ، أرجو الله سبحانه ان يثيبني عليه ويجعله خالصاً من الرياء والسمعة ، وأرجو ألا

أكون قصدت به الا ارضاء الله وخدمة عباده من بني الانسان عامة فقد ألّفته للناس عامة لا للمسلمين وحدهم ، وكذلك هو الاسلام في أصل دعوته يخاطب الناس جميعاً ويرجو لهم كلهم الخير والسعادة وحسن العاقبة والمصير .

سدد الله الخطى ، ووفقنا لنصرة الخير ومحاربة الشر ، والتعاون على جمع البشر على صعيد العبودية لله ، التي تحقق وحدها للانسان السلطان على الكون لا على بني جنسه ، وتتحقق عن طريقها وحدها الاخوة الانسانية العامة .



القسم الأول

العقيدة

كل نظام اجتماعي وكل حضارة انسانية تنبثق عن مفهوم للوجود وتصور للانسان يحدد موقعه في الوجود وعلاقته بالكون وبما وراء الكون وتنطلق من اعتقاد يؤمن به الانسان في هذا المجال . فالعقيدة سواء أكانت دينية أم فلسفة فكرية هي الأساس الذي تقوم عليه حضارة أولئك الذين يدينون بتلك العقيدة أو تلك الفلسفة بل تقوم عليه جميع الانظمة الاجتماعية في تلك الحضارة . فمن العسير مثلاً أن تفصل نظام الحكم في الاسلام عن عقيدته اذ تعتبر الحاكم عبداً لله اختير ليسوس الجماعة الاسلامية سياسة تطبق فيها أحكام الاسلام بالتشاور مع جماعة المسلمين ، فهذه النظرة الى الحاكم والى الشعب وما بينهما من صلة منبثقة عن التصور الاسلامي الأساسي الذي يعتبر أن البشر متساوون وأن الله استخلف بني آدم في هذه الأرض لم يخص منهم فرداً ولا أسرة ولا طبقة بهذا الاستخلاف وأن أمير الجماعة ليس إلا انساناً يخطىء ويصيب ، وكذلك البشر كلهم وأن معالم الهداية حددها الله كما حدد للكون سننه وللطبيعة قوانينها وأن الاستهداء بها وحسن تطبيقها راجع الى الجماعة كلها لا الى رأي فرد يستبد برأيه ولذلك كانت الشورى أساساً وكانت مسؤولية الحاكم بارزة في هذا النظام . وكذلك لو نظرت الى أي جزء من النظام الاجتماعي في النظام الديمقراطي لوجدته متصلاً بفلسفة هذا النظام وتصوره ومفاهيمه ، وكذلك لو نظرت الى أي جزء من النظام

الاجتماعي في المجتمع الشيوعي لألفيته منسجماً مع فلسفة الشيوعية المادية ومنبثقاً عن نظرتها الى الانسان والحياة .

ولذلك كان لا بد للانسان أن يتخذ لنفسه موقفاً في الحياة ، ويحدد سلوكه ويقيم لمجتمعه نظاماً ، من عقيدة ومن فلسفة أو تصور للوجود تكون أساساً لسلوكه . فما هي العقيدة التي هي أساس نظام الاسلام ، وما هي نظرته العامة الى الوجود أو التصور الذي قدمه للناس ؟ وما هو موقع هذه العقيدة بين العقائد ؟ وما هو مكان ذلك التصور بين سائر التصورات الأخرى أو المفاهيم العامة للوجود ؟

العقيدة الاسلامية

ان أسس العقيدة الاسلامية ومعالمها موجودة في القرآن الكريم ماثلة في سوره وآياته . فاذا أراد الباحث ان يعرفها ويقف على نظرة الاسلام العامة الى الوجود وتصوره له وما يتفرع عن ذلك من مفاهيم ونظرات ، فما عليه إلا أن يتحرى ذلك في آيات الكتاب المبين ، ففيها عرض كامل لهذه النظرة العامة التي دعا القرآن اليها ، وعرضها عرضاً واضحاً مقترناً بالادلة المقنعة والشواهد المؤيدة .

الخطاب موجه الى الانسان

لقد كان خطاب القرآن موجهاً – منذ البداية ، منذ أول سورة نزلت وهي سورة العلق – الى **الانسان** بوجه عام لا الى قبيلة ولا الى قوم ، وليس في القرآن نداء خاص موجه الى قبيلة النبي صلوات الله

عليه ، ولا الى قومه العرب وانما نجد فيه الخطاب موجهاً الى **الناس** والكلام عن **الانسان** .

طريقة القرآن

وقد دعا القرآن الكريم الانسان الى الايمان بالله والحياة الأخرى التي فيها نتائج المسؤولية والحساب والجزاء . ولكن القرآن الكريم حين خاطب الانسان ودعاه الى هذا الايمان انطلق به من الكون الذي يعيش فيه ومن نفسه (**وفي الارض** آيات للموقنين **وفي أنفسكم** أفلا تبصرون) (سنريهم آياتنا **في الآفاق وفي أنفسهم** حتى يتبين لهم أنه الحق) ولذلك تكرر في القرآن الكلام عن **الانسان** نفسه والكلام عن **الكون** ومشاهده على أنهما طريق للوصول الى ما وراءهما . ولذلك كان لا بد لنا من السير في هذا الطريق نفسه ، ولا بد لنا من معرفة موقع الكون والانسان في عرض القرآن الكريم ، والنظرة التي يوحي بها ويوجه اليها في هذا المجال لما لها من نتائج هامة في تكوين العقلية الاسلامية وان لم تدخل في اصطلاح علماء الكلام في إطار العقيدة ، ولم تكن مقصودة بالذات كذلك .



الكون (الطبيعة)

لقد تكرر الكلام عن آفاق الكون ومشاهد الطبيعة في القرآن الكريم تكراراً يلفت النظر وأكثر سور القرآن مشتملة على آيات تتصل بهذا الموضوع ومن استعراض هذه الآيات التي تتحدث عن هذا الكون يمكننا ان نستنتج الأمور التالية :

١ ـ ان الكون المعروض في القرآن **عام شامل** فهو **لا** يقتصر على وصف البلاد الصحراوية التي لا تعرف الأنهار ولا على بلاد بعينها بل يشمل الأرض كلها ثم يتجاوزها الى النجوم والكواكب والى الشمس والقمر ويشمل ما يبصره الانسان وما لا يبصره وما خلق وما سيخلق . فالقرآن يأخذ بيدنا ويطوف بنا في أرجاء الكون ، وينطلق بنا ابتداء من هذا الكون الذي نعيش فيه ، من الأرض التي نعيش فوق ظهرها وما عليها من جبال وبحار ، وما يتخللها من أنهار وجنات ، وما يهطل عليها من أمطار وينبت فيها من زرع ونبات .

(**والارض** مددناها وألقينا فيها **رواسي وأنبتنا** فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين) « الحجر »

(الذي جعل لكم **الأرض** مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء

ماء فأخرجنا به أزواجاً **من نبات** شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى) « طه » .

يطوف بنا القرآن الكريم في هذه الأرض برها وبحرها ويرينا ما في بحرها من آفاق ومنافع .

(وهو الذي سخر **البحر** لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) « النحل » .

ثم يصعد بنا الى ما فوق الأرض من أفلاك وما يجري فوقها من حوادث ذات صلة بهذه الافلاك .

(وآية لهم **الليل** نسلخ منه **النهار** فاذا هم مظلمون ، **والشمس** تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم **والقمر** قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار **وكل في فلك يسبحون**) « يس » .

(وسخر لكم **الليل والنهار والشمس والقمر . والنجوم** مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) « النحل ».

ويضعنا أحياناً **أمام مشهد جامع** لهذه المشاهد كلها :

(وأنزل من السماء **ماء** فاخرج به من **الثمرات** رزقاً لكم وسخر لكم **الفلك** لتجري في **البحر** بأمره وسخر لكم **الانهار** وسخر لكم **الشمس والقمر** دائبين وسخر لكم الليل والنهار) « ابراهيم » .

ولعل ذلك كله يجتمع في أوسع أفق وأجمع مشهد في هذه الآيات من

سورة النحل حيث يعرض عليك الكون كله بما فيه من **انسان وحيوان ونبات** وما في الأرض من **بحار وجبال وأنهار** وما فوقها من أفلاك من **شمس وقمر ونجوم** وذلك كله تفصيل لما سماه القرآن في عدة مواطن **(ملكوت السموات والارض)** أو (عالم الشهادة) .

(خلق **السموات والارض** بالحق تعالى عما يشركون . خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها ، لكم فيها دفء ومنافعُ ومنها تأكلون . ولكم فيها جَمال حين تريحون وحين تسرحون وتحملُ أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم . والخيلَ والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . يُنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجومُ مسخرات بأمره ان في ذلك لآية لقوم يعقلون . وما ذرألكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون .) « النحل ٢— ١٧ » .

٢ — الكون كما يعرضه القرآن تجري على مسرحه حوادث ويجري فيه تبدل وتغيير ويتميز بالحركة وتنتقل حوادثه من طور الى طور واليك بعض آيات القرآن المشيرة إلى ذلك بوضوح :

(وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) « الحج » .

(ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركامـاً فترى الودق يخرج من خلاله) « النور » .

(وسخر الشمس والقمر كل **يجري** لاجل مسمى) « الرعد ولقمان وفاطر والزمر » .

(والشمس **تجري** لمستقر لها ... لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك **يسبحون**)

(وسخر لكم الشمس والقمر **دائبين**) .

(أفلا يرون أنا نأتي الأرض **ننقصها** من أطرافها)

(والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا **لموسعون**) .

ومثل هذه الآيات الواردة عن الكون آيات عن الانسان وأطوار خلقه كقوله تعالى :

(ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم جعلنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظـاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) .

٣ — حوادث الكون — كما يشير القرآن — مرتبط بعضها ببعض ما بين سابق ولاحق بانتظام واطراد يدل على أنها تتبع سنناً مطردة في حدوثها وحركتها وذلك ما توحيه الآيات التالية :

(وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدرك القمر ولا الليلُ سابق النهار وكل في فلك يسبحون) « يس » .

(وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون) « المؤمنون » .

(ألم تر أن الله **يزجي سحاباً** ثم **يؤلف بينه** ثم **يجعله ركاماً فترى الودق** يخرج من خلاله) النور .

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء **فسلكه** ينابيع في الارض ثم **يخرج** به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً . **ثم يجعله** حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الالباب « الزمر ٢١ » .

حتى إن القرآن ينبهنا الى ما في هذه السنن المطردة في حوادث الكون والقوانين المنتظمة في الطبيعة من صفات (كيفية) **كاختلاف الالوان** والأشكال :

(أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جُدَد[1] بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب

---

(١) جمع جدة أي طريق ظاهرة والجدد هنا الخطوط والطرائق تكون في الجبال وغرابيب جمع غربيب وهو الشديد السواد .

والانعام مختلف ألوانه كذلك) « فاطر » .

وكالتشابه وعدم التشابه :

(وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء . فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان **مشتبهاً وغير متشابه**) « الانعام ١٠٠ » .

(وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع **مختلفاً أكله** والزيتون والرومان متشابهاً وغير متشابه) « الأنعام ١٤٢ » .

الكمية :

كما ينبهنا الى ما في السنن الكونية كذلك من صفة (الكمية) وقابلية العدد والاحصاء والحساب كما يبدو في الآيات التالية :

(والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم) « الحجر » .

(وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصّلناه تفصيلاً) « الاسراء » (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) « يس » .

وجاء في سورة الرعد (وكل شيء عنده بمقدار) .

وقد جاءت هذه الجملة في سياق الكلام عن عدد المولودات من أرحام الاناث بوجه عام دون تخصيص الانسان – من جهة الزيادة والنقص .

(الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الارحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار) .

التصنيف :

كما نبه القرآن تنبيهاً متكرراً واضحاً الى ما في الكون من **أصناف** وما في الطبيعة من **أنواع** وأورد أمثلة لتصنيفها مع الاشارة الى الاشتراك الجامع او التباين المميز للأنواع :

(وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا **أمم أمثالكم**) « الانعام » .

وفي « سورة النور ٤٥ » (والله خلق **كل دابة** من ماء **فمنهم** من يمشي على بطنه **ومنهم** من يمشي على رجلين **ومنهم** من يمشي على أربع) .

والكون بناء على ما تقدم من أوصافه ، من سعة أفقه وتعدد أنواعه واستمرار حركته وتبدله وجريانه على سنن مطردة ، هو موضوع **تأمل** وتفكير وقد دعا القرآن الانسان ووجهه الى التفكر فيه والى استعمال حواسه لادراكه بالحس وعقله لادراكه ادراكاً أعمق وسنعود الى شرح هذه الفكرة في بحث صلة الانسان بالكون .

والكون كذلك موضوع انتفاع واستثمار ومتعة وجمال وسنعود كذلك

الى شرح ذلك في الفصل المشار اليه .

هذا هو الكون الذي وصفه وعرضه القرآن الكريم بآفاقه الواسعة وأنواعه الكثيرة وأقسامه المتعددة وحركته الدائبة وحوادثه المتكررة بانتظامه وسننه المطردة هو عالم (الشهادة) الذي يشهده الانسان فيدركه بحواسه ، وبعقله وتفكيره ، ويستثمره لمنافعه ، ويتمتع بما فيه من جمال . ولنا الى هذا الموضوع عودة في بحث صلة الانسان بالكون كما يعرضها القرآن الكريم .

ومما يلفت النظر عناية القرآن بذكر مشاهد الكون عناية كبيرة واشادته بها وتكرار عرضها في اكثر سوره عرضاً متنوعاً ووقوفه عندها ودعوته الانسان بالحاح الى النظر والتأمل فيها والتفكر في مجرى حوادثها وأعظم من ذلك كله جعل هذا الكون منطلقاً وطريقاً للوصول الى الله خالقه ومقدر سننه .

الله الخـــالق

لا يقف الاسلام في نظرته الى الوجود عند حدود عالم الشهادة والحس وفي نطاق الكون المشاهد المتغير السائر وفقاً لسنن ، كما يقف الماديون . فوجود الكون نفسه يحتاج الى تعليل ، وحركته وارتباط أجزائـــه واقتران أسبابه بمسبباته وانتظام قوانينه وسننه تحتاج الى تفسير . فما هذه القوة التي تدفع كل جزء في الكون في وجهتها وكل حادثة في خط سيرها بحيث يتكون من المجموع كل منسق متكامل في عالم النبات وفي عالم الاحياء وفي عالم الأفلاك وفي العالم الذي يضم هذه كلها وغيرها من العوالم ؟ ما هي هذه القوة المصممة الهادفة المدركة ؟ انها ليست قوة كامنة عمياء ولكنها قوة فائقة ممتـــازة عن جميع ضروب الموجودات بسعة الاطار الذي تعمل فيه وتحيط به وعمق ما تعمله فيه وانتظام ذلك العمل وتناسقه واذا كان في الطبيعة نفسها قوة كامنة فهي جزء من هذا الكون الذي يحتاج نفسه الى تعليل مقنع وسبب موجد .

ان القرآن يدفعنا الى التفكير في أكبر قضية والى البحث عن أكبر حقيقة . وذلك حين يدعونا الى الاجابة عن أسئلة تدور كلهـــا حول

(الخلق) اي الايجاد من العدم ، وهي وحدهـــا التي تميز نوعين من الوجود ، وجود خاضع منفعل ، وتدخل فيه المادة وحركتها وقوانينها نفسها وكل ما في الكون من أنواع الطاقة والقدرة فهي ليست الا خاضعة لسنة وقانون ، والقانون نفسه ليس الا حادثة مصنوعة وارتباطـاً بين أمرين أو أمور متعددة يحتاج الى مقنن له وخالق لما يتضمنه من ارتباط او اقتران منتظم بين أجزاء هذا الكون .

وهذه بعض آيات القرآن التي تطرح كبرى مسائل الوجود :

(ام خلقوا من غير شيء ، ام هم الخالقون) ؟ (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون .) « النحل ٣٠ »

(أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون) « النحل ١٦ » .

(أم خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون) « الطور » .

(ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من مـاء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) « البقرة » .

واليكم هذه الآيات التي تصور انتقال الانسان في التفكير من طور الى طور ومن جزء من أجزاء الطبيعة الى جزء آخر يظن فيه الألوهية الى ان يصل الى ان الطبيعة بكل أجزائها مخلوقة لا خالقة :

(وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين) . واليقين هنا جاء بعد تجربة وتأمل وتفكر شخصي — (فلما

جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون) « الانعام » .

الى هنا ييأس ابراهيم من اتخاذ أي جزء من الطبيعة إلهاً لان كل جزء منها آفل زائل، فاذا كان الاله آفلاً زائلاً فمن الذي يرعى هذا الكون من بعده وكيف يبقى المخلوق ويذهب الخالق؟! وهذا ينطبق على كل ما في الطبيعة لذلك يصل ابراهيم الى النتيجة التي يعلنها اذ يقول :

(إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما أنا من المشركين) « الانعام » .

إن أثر أي سبب في هذا الكون بمسببه وعلاقته به ليس أكثر من أثر الانسان في إنبات الزرع حين يزرعه فهو إنما يبذره ويغرسه، وليس هو الذي يضع فيه خاصة النمو، ولا في التراب خاصة الانبات . فاذا أعقب زرع الانسان للنبات نموه وظهوره فليس معنى هذا انه هو الزارع الحقيقي اي الخالق للنبات والمقدر والموجد لعملية الزرع والنبات . وكذلك حال اي حادثة او شيء في الطبيعة نعتبره سبباً، وانما هو في الحقيقة حدث سابق لحدث لاحق ومن وراء اقترانها وتتابعها سبب آخر وقدرة حقيقية ربطت بينها، والى ذلك تشير الآيات التالية من سورة الواقعة :

(أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه ام نحن الزارعون ؟)

الانسان يصنع شيئاً من شيء موجود سابقاً ولا يخلقه خلقاً، ويستثمر

خاصة في الطبيعة لم يكن هو الموجد والمقدر لها والى هذا تشير آيات أخرى من السورة نفسها :

(أفرأيتم النار التي تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها ام نحن المنشئون؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين) .

ولذلك يطرح القرآن مسألة (الخلق الاول) او (النشأة الاولى) في آيات كثيرة :

(خلقناكم أول مرة — فانظروا كيف بدأ الخلق — ولقد علمتم النشأة الاولى — أفعيينا بالخلق الاول) .

ان القرآن يشير دائماً الى أمرين : **أولهما** ، الخلق اي خلق الكون وما فيه من حيث أصله وبدايته **وثانيهما** ، كون هذا الخلق مقدراً تقديراً معيناً وفقاً لخطة ونظام وأهداف متلاقية متكاملة وقد يجمع في الآية الواحدة بين الفكرتين كقوله تعالى :

(أم من **خلق** السموات والأرض وأنزل من السماء ماء **فأنبتنا** به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها) « النحل » .

فكرة هامة في العقيدة الاسلامية :

ولا بد هنا من الاشارة الى فكرة هامة جداً في العقيدة الاسلامية كما تتجلى لنا في القرآن : ذلك انه لا تعارض بين وجود ارتباط سببي بين أجزاء الطبيعة وحوادثها ووجود الاله الخالق . فالقرآن يشير كما سبق القول الى ارتباط حوادث الطبيعة بعضها ببعض ، كارتباط نمو

النبات بنزول الماء ، وارتباط نزول المطر بتكاثف السحب وتراكمها . فهذه السببية او الارتباط بين الحوادث هو نفسه جزء من هذه الطبيعة يحتاج مثلها الى قوة خالقة قدّرته على هذه الصورة .

لذلك كان مفهوم « الاله » في الاسلام هو انه القوة الخالقة المبدعة ، وانه القوة الخالقة للأشياء والاسباب ، والمقدرة لهذه الاسباب او لهذه السنن المطردة والقوانين المنتظمة . فالسبب او القانون نفسه ليس قوة عاقلة مدركة خالقة مبدعة ، بل هو نفسه جزء من نظام شامل لعدد لا يحصى من الاسباب والسنن والقوانين . وهي بمجموعها مخلوقة منفعلة متأثرة خاضعة موجهة تحتاج الى من يوجدها ويقدرها ويوجهها . لذلك لم يكن في العقلية الاسلامية تناقض بين السببية والبحث عنها والعلم بها من جهة والايمان بالله الخالق من جهة أخرى اي انه لم يكن من حيث الاساس تعارض بين العلم المبني على البحث عن سنن الكون وأسبابه والايمان بالله بل هناك ارتباط وثيق بين الكون وما فيه من سنن منتظمة من جهة والله المحيط بها كلها والخالق لها من جهة أخرى .

مفهوم (الاله) في الاسلام :

وعلى هذا فالكون او الطبيعة وما في الكون من ضروب الارتباط بين ما يسمى بالاسباب ومسبباتها والعلل ومعلولاتها كلها مخلوقة ، وهي متعلقة بوجود أعلى وأسمى وأكمل من وجودها وهو وجود « الله الخالق المبدع لها والمقدر لسننها واسبابها » ولذلك لا يطلق على الله الخالق في العقيدة الاسلامية لفظ سبب ولا علة لانه **خالق الا سباب والعلل** ومقدر سننها وقوانينها .

والله في العقيدة الاسلامية كما يقتضيه منطـق الفكر السديد يتصف بالقدرة والحياة والعلم . لأن نتائج خلقه وصنعه تدل على انه خلق يصدر عن عالم بما يخلق (ألا يعلم من خلق) ، محيط بالكون الذي خلقه ، مدرك لما قدره فيه من سنن .

اما إله الفلاسفة) فهو علة نهائية او (قوة كامنة) غير عاقـلة ولا مدركة افترضوا وجودها في الأشياء وهي نفسها في حاجة الى تفسير وتعليل ما دامت غير محيطة ولا مدركة ولا واعية .

الله في العقيـــدة الاسلامية **وجود كامل** مطلق يتصف **بالحياة والعلم والقدرة والارادة** ذلك ان في الكون نفسه مخلوقات تتصف بهذه الصفات ضمن حدود محدودة ، كالحيوانات والانسان ، فلا بد ان يكون الوجود الذي أوجدها متصفاً بصفات أعلى منها وأشمل وأكمل في غير تحديـــد بحدود ، ومن هنا كان الاختلاف الواضح بين حياة ناقصة محدودة تبدأ بالولادة ويعتريها التوقف والتحديـد والنقصان بالتخدير والنوم وتنتهي بالموت او الفناء ، وحياة دائمة كاملة لا يعتريها شيء من ذلـك . وبين علم **محدود** ناقص يقبل الزيادة ويطرأ عليه ما يزيله دائماً او مؤقتـــاً كالخرف والنسيان وهو بطبيعته محدود بحدود لا يتجاوزها ، وعلم كامل دائم لا يعتريه نسيان ولا غفلة ولا نقص ولا يتحدد بحدود مكانيـة او زمانية ولا يتصف بولادة ولا قرابة ولا نسب .

ومن هنا كان الفارق الفاصل في العقيدة الاسلامية بين المخلوق وهـو ناقص مهما كمل والخالق وهو الكامل الكمال المطلق في وجوده وفي سائر صفاته (ولله المثل الأعلى) و (ليس كمثله شيء) .

من جملة كماله **تفرده ووحدانيته** فهو لا يحتاج الى شريك في خلقه وقدرته لانه لو وجد له ند وشريك لامكن الاستغناء عنه بشريكه فلم يعد وجوده لازماً وواجباً ولوجب ان يكون تشابه المثلين ناشئاً عن وجود آخر أوجد التماثل والتشابه فلا يكون أحد من المتشابهين إلهاً خالقاً .

لا شك ان النقطة البارزة الاولى التي ينطلق منها الفكر الانساني هي **احتياج الكون** الى موجد غير محتاج الى موجد اي ان وجود الكون وجود مفتقر غير مستقل فلا بد ان يتصور العقل وجوداً **قائماً بذاته غير** مفتقر الى سواه ، بل سواه مفتقر الى وجوده . وذلك هو وجود الله وهذه الصفة نفسها تقتضي الوحدانية لان التعدد يجعل وجود كل واحد من المتعددين المتساوين في الصفات غير لازم ولا ضروري بحيث يمكن الاستغناء عنه بشريكه الآخر وهكذا يكون هذا الوجود الذي يمكن الاستغناء عن وجوده ناقصاً غير كامل فلا يكون صاحبه إلهاً خالقاً متصفاً بما اقتضاه العقل من صفات لوجوده .

الله في العقيدة الاسلامية هو (الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم) هو الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً (خلق السموات والارض ومن فيهن) وهو الذي (أحاط بكل شيء علماً) . (لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء) و (هو بكل شيء عليم) .

(لا يعزب عن علمه مثقالُ ذرة في الارض ولا في السماء ..) هو (عالم الغيب والشهادة) يتصف بالادراك بأوسع معانيه وأطلقها فهو (لا تدركه الابصار وهو **يدرك الابصار**) وهو (**السميع البصير**)

وهو مطلق الارادة (فعال لما يريد) وهو يملك طبعاً هذا الكون الذي خلقه (له ملك السموات والارض) يحكم في ملكه هذا كما يشاء (لا معقب لحكمه) ، (له الحكم واليه المصير) والكون كله خاضع له (ولله يسجد من في السموات والارض) ، (وسخر الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) .

صلة الله بالكون :

الله في العقيدة الاسلامية بالنسبة الى الكون **خالق** لأصل وجوده **ومقدر** لسننه ونظامه (وخلق كل شيء وقدره تقديراً) . وما دام هو الخالق له فهو **المالك له** والمتصرف به والقادر على توسيعه وزيادته (والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون) وعلى إبادته وإفنائه . وما دام هو الموجد لسننه وقوانينه فهو كذلك الحاكم ببقائه كذلك واستمراره والقادر على الغائه وتبديله (له الخلق والامر) فالمهندس الذي أشاد معملاً على طريقة معينة ونظام معين يستطيع ان يعيد انشاء المعمل على نظام آخر والمهندس مخلوق فكيف بمن خلق الكون وخلق نظامه . فالخالق الذي خلق النجوم والكواكب ورسم لها مداراتها وحركتها وسكونها بمقتضى نظام معين لا يختل ، فأقامها في موقعها فوقنا كما نراها ونحس بها (بغير عمد ترونها) بل بقوى خفية لا نراها بالابصار ربما كانت هي قوة الجاذبية فأمسكها بذلك أن تقع على الارض وجعلها في تلك المواقع التي ورد في القرآن القسم بها (فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم) ان هذا الخالق قادر عقلاً بلا تردد ولا ريب ان يبدل هذا النظام كله فيجعل النجوم متناثرة في الفضاء ويجعل

الشمس والقمر الذين لا يصطدمان الآن (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) يجعلها يجتمعان في يوم من الايام (وُجمع الشمس والقمر) .

فكل خصائص الكائنات وجميع سنن الكون ونواميسه وقوانينه ليست الا مخلوقة مقدرة والله مسيطر عليها وليس هو جزءاً منها وليس هو سبباً من جملة الاسباب ولا علة من العلل فالاسباب والعلل والقوانين والنواميس كلها مخلوقة خاضعة مقدرة فهي من **خلقه وتقديره وتدبيره .**

والكون منتظم لا فوضى ، ولكن انتظامه مرتبط بارادة الله وقدرته واستمرار هذا النظام منوط كذلك بمشيئة الله العليا . ان كل تعليل لحوادث الطبيعة بقانونها تعليل ناقص ، لان القانون واقع يحتاج الى تعليل ، وليس القانون موجداً للحادثة من العدم ولا يتصف بالوعي الهادف ، وكل افتراض لقوة كامنة او خفية ان صح فهو ناقص يحتاج الى تعليل هذه القوة الكامنة غير الواعية ولا العاقلة . ولذلك كان الإيمان بالله الخالق متمماً ومكملاً لنظرتنا الى الكون والطبيعة وما فيها من حركة وتطور ومن سنن وقوانين ، فهي محتاجة الى وجوده ، مفتقرة الى استمرار امداده وعنايته ، مؤثرة في مسيرها وكيانها بأمره (ولله يسجد من في السموات والارض) .

فالكون كله بمادته وسننه منقاد لمشيئته (كل له قانتون) وهو ملك له (له ما في السموات وما في الارض) وعليه انبسط سلطانه (وسع كرسيه السموات والارض) .

(بل له ما في السموات والارض كل له قانتون) « البقرة ١١٧ » .

(ولله يسجد من في السموات والارض طوعاً وكرهاً) « الرعد » .

(ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أوكرهاً قالتا أتينا طائعين) « فصلت ١١ » .

الإنســـان

ما هو موقع الانسان في هذا الكون والوجود وما صلته بالكون وأجزائه وما صلته بالاله خالق الكون ؟

الانسان في نظر الاسلام هو أحد هذه المخلوقـــات الكونية التي أسكنها الله هذه الأرض يشاركها الكثير من صفاتها وينفرد هو بصفات خاصة به .

١ – فهو يشارك التراب في أصل خلقته وعناصر تركيبه وتكوينه (هو الذي خلقكم من تراب[١]) ، (والله خلقكم من تراب)[٢] وبهذه المناسبة يقول الدكتور الكسيس كاريل الطبيب الكيمياوي الكبير في مؤلفه القيم (الانسان ذلك المجهول)[٣] ان الانسان مخلوق حقيقة وبالمعنى الحرفي من

---

(١) المؤمن .

(٢) فاطر .

(٣) L'homme cet inconnu ظهر هـــذا الكتاب في طبعته الاولى ١٩٣٦ ومؤلفه طبيب كيماوي وهو فرنسي وقد كان على رأس الابحاث العلمية في معهد روكفلر في

تراب . يشير بذلك الى المطابقة بين تركيب الجسم البشري الكيمياوي بجميع أجزائه وتركيب التراب .

٢ – ويتصل الانسان بالنبات ويشاركه في نموه وفي الكثير من مواد تركيبه (والله أنبتكم من الأرض نباتاً)[١] ، وغذاؤه من النبات ومما يتغذى من النبات وهو الصلة المستمرة بينه وبين التراب .

٣ – ويشارك الانسان الحيوان بأنواعه في كثير من صفاته وغرائزه في طعامه وشرابه وفي توالده وتناسله فهو من هذه الناحيـــة نوع من أنواعه (وما من دابة في الارض ولا طـائر يطير بجنـاحيه الا أمم أمثالكم)[٢] ، واذا صنفت الحيوانات بحسب طريقة انتقالها كان هو واقعاً بين الزواحف وذوات الأربع ويشترك معها جميعها في طريقـة التوالد ، (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء)[٣].

٤ – ولكن الانسان ميزه الله عن الحيوان بقـامة مستقيمة وخلق سوي وهذا ما تشير اليه آيات عديدة في القرآن (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طـين .. ثم أنشأناه خلقاً آخر)[٤] ، وفي آيات أخرى

امريكا والكتاب يمثل اتجاهاً جديداً يمارض اتجاه الحضارة الحديثة في أهدافها ويتجه اتجاهاً روحياً تدعمه الابحاث العلمية العميقة وقد ترجم الى العربية .

(١) نوح .

(٢) الانعام .

(٣) النور .

(٤) المؤمنون .

(ثم سواه) [١] ، او (فاذا سويته) [٢] — أو (في أحسن تقويم) [٣] ، أو (الذي خلقك فسواك فعدلك) .

كما ميزه ايضاً بامكان نمو الحواس نمواً يعين على تكوين خاصة العقل والتفكير وهي ليست كذلك في الحيوان والى هذا يشير الله في قوله :

(والله أخرجكم من بطون **امهاتكم لا تعلمون شيئاً** وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة لعلكم تشكرون) [٤] . واذا كان الانسان أرفع أنواع الاحياء بتميزه بالعقل مع الحواس كانت أحط الأنواع هي التي فقدت الحواس والعقل معاً : (إن شر الدواب عند الله **الصم البكم الذين لا يعقلون**) [٥] ، وهي التي شبه بها البشر الضالون الذين أعرضوا عن حكم العقل فكفروا بالله ومثله قوله تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلاً) [٦] . وخاصة التفكير والعقل تمكنه من (العلم) أي ادراك الحقائق الخارجية والى هذا الارتباط بين الحواس التي في الانسان والعلم الذي توصله اليه تشير هذه الآية :

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم **لا تعلمون شيئاً** وجعل لكم السمع

---

(١) السجدة .
(٢) ص
(٣) التين .
(٤) النحل .
(٥) الانفال .
(٦) الفرقان ٤٤.

والابصار والافئدة لعلكم تشكرون) فمعنى الآية ان عدم العلم في حال الولادة يتحول الى علم بوساطة (السمع والابصار والافئدة) وهذا خلافاً للحيوان الذي لا تنمو حواسه نمواً يؤدي الى العلم . ولهذا وصف الانسان في مكان آخر بالعلم وذلك في أول ما نزل من القرآن من آيات :

(اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق **الانسان** من علق اقرأ وربك الاكرم الذي **علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم)** .

وجعل من مزاياه في سورة أخرى كونه قادراً على التعبير عن علمه وأفكاره وذلك في قوله تعالى :

(الرحمن .. **خلق الانسان علمه البيان**) وتكرر في الكتاب الكريم وصف الإنسان بكونه (مبيناً) مفصحاً عما في نفسه .

وفي القرآن إشارات عديدة الى ان علم الإنسان قابل للزيادة دائماً ، (وقل ربّ زدني علماً) ، (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) والى تفاضل الناس في العلم : (وفوق كل ذي علم عليم) .

وتميز الإنسان أخيراً عن أنواع الحيوان بما فيه من سمو ونفحة روحية وهبه الله إياها وذلك ما تشير اليه كثير من الآيات :

(وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه **ونفخ فيه من روحه** وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون) السجدة .

(إني خالق بشراً من طين فاذا سويته **ونفخت فيه من روحي**

فقعوا له ساجدين « ص » والخطاب هنا للملائكة .

وبناء على وجود هذين العنصرين العقل والروح جعل الإنسان **مكلفاً** وكانت حياته اختباراً وابتلاء (انا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج **نبتليه فجعلناه سميعاًبصيراً** « الدهر » . وهذه هي الامانة الثقيلة التي حملها الإنسان .

ومن هنا كان الإنسان الطبيعي السوي غير الشاذ هو ذلك الذي تنمو فيه كل عناصر تكوينه من تركيبه وغذائه الى غرائزه باعتباره حيواناً ، الى حواسه وعقله ، الى روحه السامية ، فلا يطغى جانب على جانب ولا يعنى بجانب باهمال جانب آخر ، على ان تكون هذه العناصر أو الجوانب مرتبة بترتيبها المتصاعد ، من الترابية فالحيوانية فالعقلية فالروحية ، وذلك هو **الانسان الكامل** وهو الذي تكمل فيه هذه الجوانب كلها ولكن الترابية فيه خادمة للحيوانية وحيوانيته خادمة لعقله وعقله خادم لروحه .

وعلى هذه النظرة يبني الإسلام نظامه الأخلاقي التربوي . والإنسان بناء على هذا يمتاز بامكان ترقيه وارتفاعه او زيادته في كل مجال من هذه المجالات وبالنسبة الى كل عنصر من هذه العناصر ولكنه ارتقاء له حدود نهائية . ففي الجانب المادي مثلاً يمكنه ان يعتني بغذائه وقوة جسمه حتى يبلغ غاية ما تؤهله له قدرته وامكاناته من القوة الجسمية والصحية . ويمكنه كذلك ان ينمي حواسه وان ينمي ادراكه وتفكيره الى أقصى ما تبلغه قدرته ، وان يستوعب من العلم ويزداد منه ويكتشف من آفاقه وحقائقه ما شاء الله ان يزداد (وقل رب زدني علماً) ، سواء

اعتبرنا ذلك بالنسبة للفرد ، ام بالنسبة للجنس البشري ، الذي يضيف كل جيل منه علماً جديداً الى علم الاجيال السابقة . وكذلك الحال أخيراً بالنسبة الى الملكة الخلقية والموهبة الروحية ، فالإنسان يستطيع ان يتدرج في الرقي من المرحلة السلبية ، التي هي الكف عن الشر ، الى مكافحة دوافعه في نفسه حتى لا يكون فيها طمع ولا شر ولا شح ولا رغبة في اعتداء ولا استئثار ، الى المرحلة الايجابية التي تكون فيها دوافع الخير قوية في نفسه فينطلق في مجالات الإيثار والتعاون والكرم وبذل المال والنفس وتغليب الرحمة والحب في دائرة تتسع حتى تبلغ بني الإنسان بل الأحياء جميعاً . وتبلغ به موهبته الروحية ان يقوى شعوره بخالقه وحبه له وصلته بآثاره قوة تجعله واعياً وعياً عميقاً لموقعه منه ، فيرتفع بذلك الى أعلى المستويات الروحية والمثالية ، حتى كأنه ملك يعيش في صورة إنسان ، والى هذه الدرجات المتصاعدة تشير هذه التعابير القرآنية (النفس الأمارة بالسوء) و (النفس اللوامة) و (النفس المطمئنة) .

لقد كرم الله الإنسان او بني آدم في ان جعلهم (خلائف الارض) اي مستخلفين[1] عليها يتصرفون وينتفعون بها ويسخرونها لصالحهم ومنافعهم فقد قال الله تعالى (واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة) وقال في سورة الانعام (هو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم) .

---

(١) ومعنى الاستخلاف ان الله عهد الى الانسان واوكل اليه عمارة هذه الأرض والقيام بشأنها والانتفاع بها ومكنه منها وجعل له سلطاناً عليها وتطلق كلمة (خليفة) بمعنى الوارث للملك والسلطان كقوله تعالى : - (واستعمركم فيها) اي طلب اليكم عمارتها .

والخطاب في هذه الآية كما يستدل من سياقها **للبشر عامة** ومثلها قوله تعالى سورة الشعراء (أم من يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم **خلفاء الارض**) وكذلك قوله تعالى في سورة فاطر (ان الله عالم غيب السموات والارض انه عليم بذات الصدور . هو الذي جعلكم **خلائف في الارض** فمن كفر فعليه كفره) وورد في صحيح مسلم عن ابي سعيد الخدري ان رسول الله ﷺ قال : (ان الدنيا حلوة خضرة وان الله **مستخلفكم فيها** فينظر كيف تعملون) .

ذلك هو الموقع الذي وضع الإسلام فيه الإنسان بالنسبة الى هذا الكون وهو موقع المسلط على الكون والمكلف بالعمل فيه واستثماره والمهيمن عليه بحكم الله الخالق له وللكون . كما ان الكون من جهة أخرى مسخر ومذلل ومهيأ لهذا الاستثمار . وهنا لا بد لنا من بيان صلة الإنسان بالكون في نظر الإسلام ودعوته وعقيدته .

صلة الانسان بالكون :

لا شك ان الإنسان جزء من هذا الكون ولكنه جزء له موقع خاص من بين أجزاء هذا الكون . فقد قدمنا القول فيما يمتاز به هذا المخلوق (الإنسان) من سائر المخلوقات كالنبات والحيوان ، بما أوتي من حواس نامية ، وعقل يجمع حصائل هذه الحواس وينسقها ويصنفها فيصل الى كثير من حقائق الكون ، ومن روح قادرة على النمو والصعود والرقي . لذلك كانت صلة الإنسان بهذا الكون كما يصفها القرآن ويعرضها هي :

١) صلة الاستثمار والانتفاع والتسخير لمنافعه ومصالحه .

٢) صلة الاعتبار والتأمل والتفكير في الكون وما فيه .

أما صلة الانتفاع والاستثمار فتبدو واضحة في آيات كثيرة في القرآن الكريم فلا يذكر القرآن جزءاً من أجزاء الكون الا ويشير الى ما فيه للانسان من منافع وذلك كقوله تعالى : (**والانعام** خلقها ، **لكم فيها دفء** ومنافع ، **ومنها تأكلون** ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . **وتحمل** أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم) ووصف الانعام في آية أخرى بقوله : (وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) « يس » ووصف البحر بقوله سبحانه (وهو الذي سخر البحر **لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا** منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه **ولتبتغوا من فضله** ولعلكم تشكرون) « النحل » ووصف الماء والنبات بقوله :

(وهو الذي أنزل من السماء ماء ، **لكم منه** شراب ومنه شجر **فيه تسيمون . ينبت لكم به** الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون) « النحل » وفي آية أخرى في سورة طه (وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . **كلوا وارعوا انعامكم** ان في ذلك لآيات لأولى النهى) . والارض بما فيها مذللة خاضعة للانسان كما يشير الى ذلك قوله تعالى في سورة الملك (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور) ولم يكتف القرآن بذلك حتى جعل الشمس والقمر وما يتبعها من ظاهرة الليل والنهار مسخرة للانسان فقد ورد في سورة

النحل (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجومُ مسخراتٌ بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) ، بل جعل الكون كله بأرضه وسمواته مسخراً للانسان (ألم تروا ان الله **سخر لكم** ما في السموات والأرض وأسبغ عليكم نعمه) « لقمان » وكذلك في سورة الجاثية (**وسخر لكم** ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

ان هذا الاتجاه الى دفع الانسان الى استثمار الكون والانتفاع به الى أقصى حدود الامكان ، واعتبار ما في الكون نعماً مقدمة من الله خالق الكون للانسان ، ينتفع ويتمتع بها ، ان هذا الاتجاه في تاريخ الحضارة وفي تاريخ الأديان كانت له نتائج عملية عظيمة جداً في الحضارة الاسلامية أولاً وفي الحضارة الانسانية عامة .

صلة التأمل والتفكر :

والجانب الثاني من صلة الانسان بالكون او الطبيعة هو اتخاذه مسرحاً لتأمله وموضوعاً لتفكيره . ففي معرض الكلام على ظواهر الطبيعة وحوادث الكون في القرآن الكريم ترد كثيراً الألفاظ الدالة على الحواس **كالرؤية والنظر والبصر والسمع** والألفاظ الدالة على التفكير كلفظ **يعقلون ويتفكرون ويعلمون ويتدبرون ويوقنون ويفقهون .**

والقرآن الكريم يفتح عين الانسان على ما حوله من مشاهد وآفاق ويدعوه الى التأمل فيها والنظر اليها وملاحظتها والاتصال بها والتفكير فيها يدعوه الى ذلك كله بالاشارة الواضحة او القول الصريح .

فهو يدعوه **الى النظر والتأمل فيها** :

او لم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعاً) « السجدة » .

(**انظروا** الى ثمره اذا أثمر) .

(**او لم ينظروا في** ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء) الاعراف .

(قل **انظروا** ماذا في السموات والأرض) « يونس » .

(**فلينظر** الانسان الى طعامه انا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً ..) (**أفلم تنظروا** الى السماء) .

ويدعوه الى التفكير فيها مبتدئاً بنفسه :

(**او لم يتفكروا في أنفسهم**) .

(**ويتفكرون** في خلق السموات والارض) .

ويختم كثيراً من الآيات المشتملة على بعض مشاهد الطبيعة وأجزاء الكون بهذه **الخاتمة الداعية الى التفكير** :

(ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون) او (ان في ذلك لآية لقوم يعقلون) .

(وهو الذي مد **الارض** وجعل فيها **رواسي وأنهاراً** ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي **الليل النهار** ان في ذلك لآية **لقوم يتفكرون**) الرعد .

(هو الذي أنزل من السماء **ماء** لكم منه **شراب** ... ينبت لكم به **الزرع** والزيتون والنخيل والأعناب ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون) .
« النحل ١١ »

(وأوحى ربك الى النحل ان اتخذي ... شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية **لقوم يتفكرون**) « النحل ٦٩ » .

(وسخر لكم في السموات وما في الأرض جميعاً منه ان في ذلك لآية **لقوم يتفكرون**) « الجاثية ١٢ » .

(وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات **لقوم يعقلون**) « الروم ٢٤ » .

(وفي الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضه على بعض في الأكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) « الرعد ٤ » .

وهذه الآيات وان كان المراد من كثير منها الاعتبار بها والانتقال منها الى خالقها ، لكن يرد في أثنائها الاشارة الى سنن هذه الحوادث وارتباط أجزائها وانتظام أمرها ومثال ذلك قوله تعالى في سورة الروم :

(الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم مستبشرون . وان كانوا من قبل ان ينزل عليهم من قبله لمبلسين . **فانظر** الى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير) وكقوله تعالى في سورة

الزمر (ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً) فواضح في هذه الآيات الدعوة الى النظر والتأمل في تتابع هذه الاحداث وتلاحقها وجعل بعضها نتيجة لما قبلها وان كان القصد اتمام هذا التفكير والاستمرار في طريقة للوصول والاهتداء الى خالق الكون . ان هذه الآيات التي تدعو الانسان الى النظر والتفكر في مشاهد الكون وجريان حوادثه كثيرة في القرآن الكريم ومنها آيات تدعو الى النظر الكلي الى الكون وخلقه كقوله تعالى :

(ويتفكرون في خلق السموات والارض) وقوله (قل انظروا ماذا في السموات والارض) وقوله (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء) الاعراف .

ويؤيد هذا الاتجاه في جعل الكون محلاً للتفكير وفي استخراج حقائقه عن طريق الحواس والعقل معاً الاحاديث الصحيحة الواردة في هذا الموضوع وفي مقدمتها حديث تأبير النخل ونصه كما أخرجه مسلم في صحيحه :

(عن طلحة بن عبدالله قال مررت مع النبي ﷺ في نخل المدينة فرأى أقواماً في رؤوس النخل يلقحون النخل . فقال ما يصنع هؤلاء . فقيل يأخذون من الذكر فيحطون في الانثى يلقحون به . فقال ما اظن ذلك يغني شيئاً فبلغهم فتركوه ونزلوا عنها فلم يحمل تلك السنة شيئاً فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال **انما هو ظن ظننته** ان

كان يغني شيئاً فاصنعوا فانما أنا بشر مثلكم **والظن يخطيء ويصيب** ولكن ما قلت لكم قال الله عز وجل فلن أكذب على الله) .

وللحديث روايات عدة منها (اذا أمرتكم بأمر من أمر دينكم فأطيعوا واذا أمرتكم بأمر من أمر دنياكم فإنما أنا بشر) .

وواضح من هذا الحديث ان أمور الزراعة وما يشبهها من الامور الكونية والاعمال المتعلقة بالطبيعة موكول أمرها الى الانسان الى تجربته وعقله وهذا توجيه جديد في تاريخ الانسانية وتاريخ الدين نفسه ، ولا شك ان هذا الاتجاه في جعل شؤون الطبيعة ومعرفة حقائقها ومعالجة صناعتها وزراعتها موكولاً الى عقل الانسان وتجربته اتجاه عظيم جداً وله نتائج وآثار عظيمة . وقد كان له فعلاً في تاريخ الحضارة الاسلامية ثم تاريخ الحضارة الانسانية عامة أكبر النتائج . فالاسلام هو الذي شق الطريق وفتح هذا الباب سواء أنظرنا الى الاديان السابقة أم الى الفلسفات ومناهج التفكير . وليست الحضارة الحديثة ومكاسبها الكبيرة في كشف آفاق كثيرة من الطبيعة واستثمار هذه المكتشفات في المخترعات النافعة الا نتيجة مباشرة لهذا الاتجاه ، واتماماً للطريق التي سارت فيها الحضارة الاسلامية في مجال النظر الى الطبيعة والبحث فيها . والمخطط لهذا الاتجاه والفاتح لهذه الطريق هو ما تضمنه القرآن وأيدته السنة من موقف الانسان امام الكون وتحديد صلته به في اطار نظرة الاسلام

العامة الى الوجود [1] .

وهكذا تجلت خلافة الإنسان في الارض في قدرته على استثمارها والانتفاع بما فيها وفي قدرته على التأمل والنظر والتفكر في حوادثها وآياتها وسننها وأسرارها ، ولذلك أعطاه الله من الصفات ما يمكنه من ممارسة هـذه الخلافة وأبرز هذه الصفات **القوة** – جسمية كانت أم فكرية – **والعقل والعلم** ومنها كذلك **الحياة والارادة** وهذه الارادة ارادة حرة مختـــارة – وتفصيل ذلك في مكان آخر – وفي مقابل ذلك كله جعله مكلفاً مسؤولاً ورتب على هذا التكليف الجزاء .

صلة الانسان بالله

لا يقف الإسلام بالإنسان في مجال التفكير عند حدود الكون بـــل يطلب اليه ويدعوه ويدفعه الى توجيه تفكيره هذا الى خالق الكون ولا يقف به كذلك في مجال العمل والاستثمار عند حدود استثمار ما في الكون من منافع بل يدعوه الى الشعور بصلته بخالق هذه المنافع الذي أقدره عليها وذللها وسخرها له .

ان حصر التفكير في إطار الكون والوقوف عنـــده ضيق وجمود ،

---

(١) وهذه النظرة الى الكون والانسان التي جاء بها الاسلام في القرآن والسنة هي في رأينا نقطة الانطلاق الأساسية لتكوين المنهج العقلي التجريبي في ميدان العلوم الطبيعية ونرجو الله ان ييسر لنا نشر ما انتهينا اليـه في هــذا الموضوع من بحث وتحقيق منذ ان نشرنا سنه ١٩٣٥ في مجلة (الرسالة) تجربة ابي الريحان البيروني في كثافة الاجسام في بحث عنوانه (التجارب العلمية عند المسلمين) .

وامتداد التفكير الى ما وراءه اتساع وارتفاع ، وهو الموقف الاسلامي . وان حصر الشعور في لذة الانتفاع بما في الكون ، وحصر الاتصال بما يحتويه الكون ابتداء من أسرة الانسان وبيئته الاجتماعية الى المجتمع الأكبر فالأكبر وحتى الانسانية كلها والارض التي تعيش عليها ، ان هذا الحصر لمشاعر الانسان تضييق لأفق الشعور ، والانطلاق من ذلك كله الى ما وراءه من الصلة بخالق هذه المنافع وتلك الصلات هو ارتفاع بالانسان ومشاعره الى أعلى المستويات وأرقى المشاعر وأفسح الآفاق .

ان الحيوان يشعر غريزياً بوجوده ولكنه لا يدرك ولا يعي موقعه من الوجود ولا يحس بصلته بالكون ، وانما ينحصر شعوره بردود فعل غريزته لمحيطه القريب ولا يتجاوز ذلك ، والانسان الذي لا يتجاوز احساسه ووعيه أكثر من صلاته بمحيطه القريب وبيئته ، ولا يبلغ وعيه حداً يمكنه من ادراك موقعه من الوجود كله من الكون وخالقه ، هو انسان قريب من الحيوان في درجة وعيه ولو كان عالماً مختصاً بأحد فروع المعرفة والعلم . واذا كان يملك مثل هذا الوعي كان انساناً حقاً ولو كان أُمياً . إن شعور الإنسان بسلطاته على الأرض من جهة ، وعبوديته لله من جهة أخرى ، هو الشعور الذي يعلمه ويلقنه الإسلام كما يتجلى في كتابه المنزل ، القرآن الكريم .

ان صلة الانسان بالله هي نهاية جميع الصلات والغاية التي ترتقي اليها ، فهي أعلى منها جميعاً . فصلة الإنسان **بأهله وأسرته وعشيرته وقومه** وبني **جنسه من البشر** وبماله ومسلكه المادي والمعنوي ، ان هذه الصلات كلها مخلوقة لله متفرعة عن الصلة به لذلك كانت **الصلة بالله هي العليا** من هذه الصلات وهي الحاكمة عليها دون ان تلغيها .

(قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب اليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين) . « التوبة : ٢٤ »

لذلك كانت **الصلة بالله صلة فريدة من نوعها** لا تشابهها ولا تماثلها صلة أخرى فهي **صلة (عبودية)** وليست كذلك الصلات الأخرى ، فصلة الانسان بالانبياء هي صلة **اهتداء** بهديهم **واقتداء** بسيرتهم وطاعة لتعاليمهم **وحب** لاشخاصهم وصفاتهم ولكنها ليست صلة (عبودية) لان الأنبياء أنفسهم عباد لله كما وصفهم القران فقد وصف **المسيح** في القرآن بأنه (عبدالله) .

(إن هو الا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل) وورد ايضاً في شأنه (لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله) وكذلك وصف خاتم النبيين **محمد** ﷺ في مثل قوله تعالى :

(سبحان الذي أسرى **بعبده**) وقوله (تبارك الذي أنزل على **عبده** الفرقان) . فاذا كانت صلة الانسان بالأنبياء وهي أعلى الصلات التي يمكن ان تكون بين الانسان وغيره من المخلوقات فغيرها من الصلات الاخرى تقع دونها وتكون أقل منها . أما الصلة بالله فهي صلة وحيدة فريدة لا تضارعها اي صلة أخرى وهي وحدها من بين الصلات دائمة باقية لا تزول ولا تنقطع .

وصلة الانسان بالله في الإسلام **صلة مباشرة** بينه وبين الإنسان .

فكل انسان يتوجه الى الله مباشرة ، فيدعوه ويعبده ويستغفره ويصلي ويسجد له ، ويكون في الآخرة مسؤولاً أمامه . وقد ورد في الكتاب الكريم في هذا المعنى قول الله تعالى (ادعوني أستجب لكم) ، وقوله : (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) ، وقوله : (واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه) ، وقوله : (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو) . وفي الحديث النبوي (اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله) . وقد كان أعظم ما جاءت النبوات من أجله تخليص الناس من العبودية لغير الله ومن اتخاذهم معبودات تكون واسطة بينهم وبين المعبود الأكبر على زعمهم (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) ، وفي آية أخرى (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون) وقد أمر الرسول ﷺ ان يقول للمشركين (قل انما **أدعو ربي** ولا أشرك به أحداً قل لا أملك لكم ضراً ولا رشداً قل اني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً الا بلاغاً من الله ورسالاته) سورة الجن .

وقبل هذه الآية (فلا تدعوا مع الله أحداً) .

أما الانبياء فهم واسطة تبليغ التوحيد والهداية اليه ، ومن هنا كانت منزلتهم العظمى لانهم يدعون ويرشدون الى أعظم غاية وأرفع هدف (يا أيها النبي بلغ ما أنزل اليك من ربك) قل انما أنا نذير ، وهم نماذج بشرية كاملة يقتدى بهم (فبهداهم اقتده) ، وفي آية أخرى (ولكم في رسول الله أسوة حسنة) . وليست وظيفتهم قبول الصلاة او الدعاء ، ولا مغفرة الذنوب ولا محاسبة الناس في الآخرة ، فذلك لله وحده ،

وهم أنفسهم يصلون لله ، ويدعون لله ، لهم وللناس ، ولكل انسان ان يدعو الله لنفسه ولغيره كذلك .

مضمون الصلة بين الله والانسان

لا شك أن الصلة بين الله والانسان موجودة وقائمة حقيقة . ذلك ان الله هو خالق الانسان ، والممد له في وجوده وبقائه ، وبيده أمره ومصيره ، سواء اعترف وشعر ورضي أم أنكر وغفل وسخط ، ولكن المهم بالنسبة الى الإنسان هو إحساسه بهذه الصلة وقوة الشعور بها واستحضاره لها في نفسه . وهذه الصلة لها جوانب ومعان متعددة هذه بعضها :

١ – **فهي اعتراف بالخالق** ، خالق **الانسان والكون والمبدع ايضاً للسنن** التي يخضع لها الانسان والكون ، اي (**للنظام السببي**) – كما نسميه عادة – القائم في هذا الكون . وينطوي هذا الاعتراف على الشعور بأنه في قبضة الاله وفي ملكه ، لا يستطيع الخروج من ذلك ، وان كل ما يجري من سنن وأسباب هو بيد الله وبمقدرته وارادته . فينشأ من ذلك كله شعور الإنسان انه مملوك لله ويتولد عن ذلك التوكل على من خلق الأسباب والمسببات حين ممارسة الانسان لهذه السنن السببية واستثمارها ، فيكون اعتماده القلبي على خالقها واستعانته الحقيقية بالله سبحانه .

٢ – **الاعتراف بعظيم قدرة الله وعظيم سلطانه وقوته** ، وينطوي هذا الاعتراف على تعظيم الله وإكباره وتقديسه ، والشعور بالخضوع له والخشوع والخشية والخوف والالتجاء اليه ، والطاعة لأمره ، والرضى بحكمه ،

والتسليم له ، والتفويض اليه ، مع استنفاد الانسان جهده وطاقته في كل عمل يقتضي منه جهداً وتفكيراً سواء أكان في التصرفـات الدنيوية أم من الأعمال التي يكلف بها الدين في مسالك الحياة .

٣ ــ **الاعتراف بنعم الله على الانسان** ومقابلة ذلك بحمـد الله على صفاته الحميدة وشكره على نعمه التي أسبغها ويسبغها عليه بلا انقطاع ، وخاصة في معرض انتفاعه بهذه النعم واستثماره لها وان كانت هي في الحقيقة دائمة لا تنقطع وشكره على مـا منحه من خلافة الارض ومـا سخر له في السموات والارض .

٤ ــ الشعور والترقب لرحمة الله المبسوطة لمخلوقاته ، والممنوحة لعباده ، ورجاء نوالها ، والأمل في شمولها له ، بما يقدمه في سبيل الوصول اليها من وسائل تقربه من الله ومن رحمته من أنواع العمـــل الصالح والعبادة لله .

(اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذوراً) .

٥ ــ الشعور بمسؤوليته أمام الله خالقه ومالك أمره والحاكم عليه وعلى مصيره . وهي المسؤولية التي تنتهي عندها كل المسؤوليات الاخرى واستحضاره لعلم الله بما يخفى وما يعلن .

٦ ــ **توجهه الى الله بالسؤال والدعاء** (واسألوا الله من فضله) (ادعوني أستجب لكم) ، والاستغفار والتوبة اليه (فاستغفروه ثم توبوا اليه) فهو السميع المجيب وهو القريب الذي يجيب دعوة الداعي اذا

دعاه وحصر السؤال والدعاء به سبحانه لان الله لا يرضى ان يشرك أحداً في ملكه واختصاصه (فلا تدعوا مع الله أحداً) .

٧ – حب الله لانه مصدر الوجود ومصدر النعم ومصدر الرحمة العامة في الكون وابتغاء مرضاته .

حب الانسان لله حباً يفوق حبه لكل ما في الكون ، مما تميل اليه نفسه وتشتهيه فالذين آمنوا (أشد حباً لله) . وقد قال تعالى موجهاً الإنسان الى أن يجعل هذا الحب فوق كل حب (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها **أحب اليكم** من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) .

٨ – ومن أعظم معاني صلة الإنسان بالله وهو معنى يجمع الكثير من المعاني السابقة التفكر في آيات الله وتذكره في النفس واستحضار صفاته . إن ذكر الإنسان لله في قلبه ونفسه ، وتصوره لعظمته وقدرته ورحمته وسائر صفاته ، هو تذكر واستحضار لموقع الانسان من الكون ومن الله الخالق له وللكون ولما يتبع ذلك من معاني .

وقد جمع القرآن **التفكر والتذكر** في آية واحدة في قوله :

(إنّ [١] في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب الذين **يذكرون الله** قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم **ويتفكرون**

---

(١) آل عمران .

في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار) . ان **الذكر** يقابل النسيان والغفلة والانسان يذكر من يحبه أو يرجوه أو يخافه ولذلك كان ذكره لله أمراً لازماً لان هذه المعاني وأكثر منها متحقق فيه سبحانه . والاصل في ذكره تذكره في القلب وإنما جعل اللسان دليلاً على ما في القلب أو مثيراً له . وقد وردت كلمة الذكر في القرآن بهذا المعنى القلبي كقوله تعالى (**فاذكروا** الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكراً) وقوله : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) كما وردت كثيراً بمعنى الذكر باللسان مع القلب كقوله تعالى (واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والابكار) وقوله (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) . والقرآن والسنة يفيضان بالدعوة الى ذكر الله دعوة ملحة دائمة والغاية من ذلك ايقاظ شعور الانسان ووعيه ، لأن ذكر الله في الحقيقة يثير وعي الانسان لموقعه من الكون والوجود وخاصة لموقعه هو والكون من الله الخالق . وكلما كان ذكره لله عميقاً شاملاً غنياً بالمعاني والمشاعر كان وعيه لموقعه الوجودي وعياً عميقاً شاملاً ينبثق عنه سلوكه كله في الحياة .

إن هذه المعاني والمشاعر كلها يمكن أن تلخص وتجمع في معنى واحد **هو العبودية ، فالاخلاص في عبودية الانسان لله والتحرر من العبودية لسواه** على الاطلاق وإفراده بالألوهية واستشعار هذه المعاني استشعاراً مستمراً بقدر الإمكان هو المعنى الأساسي والجوهر الأصيل في صلة الانسان بالله . **واعلى معاني الانسانية** وأرفع درجاتها ليس في سعة العلم ، ولا في قوة الجسم ، ولا في حسن التصرف في المجتمع ، ولا في الأدب الاجتماعي ، وإنما هو في تحقيق معنى العبودية لله في نفس الانسان .

وبذلك يرتفع الانسان إلى أعلى المستويات ويتحرر من كل ما يعوق ارتقاءه الحقيقي ويستطيع أن يجعل قوة جسمه ، وسعة علمه ، وحسن تصرفه ، وأنواع خبرته ومقدرته ، ذات معنى انساني وموجهة باخلاص إلى أهدافها ومواقعها من غير منّ ولا أذى ولا طغيان ولا استعلاء ولا فساد .

ونضيف إلى ما ذكرنا من خصائص صلة الانسان بالله بعد ان أوضحنا جوهرها ومضمونها الصفات التالية :

إن هذه الصلة قابلة للنماء والزيادة

فكل معنى من المعاني التي ذكرناها وكل شعور من تلك المشاعر القدسية يمكن أن يكون سطحياً ضعيف الأثر سريع النسيان ، كما يمكن ان يقوى ويشتد في النفس حتى يتغلغل في أعماقها ويصبح كالعرق الذي ينبض والدم الذي يجري في كيان الانسان . وبين هذين النوعين مراتب ودرجات فالاعتراف بالوهية الخالق وعبودية الانسان ، والاعتراف بخلق الله للاسباب وتقديره لسنن الكون ، والشكر له على نعمه ، والخضوع والخشوع له ، وتعظيمه وتقديسه ، والتوكل على قوته والاعتماد عليه ، حتى في حال ممارسة الأسباب المشروعة والسنن المقدرة في الكون ، والشعور برقابته وعلمه ، كل هذه المعاني النفسية يمكن أن تكون ضعيفة سطحية أو قويه عميقة . والمهم أن يسعى الانسان في تنميتها ويرتقي في معارجها وأن يكون — في هذا المجال — يومه خيراً من أمسه .

واتصاف هذه الصلة بين الله والانسان بالنمو والزيادة من جانب

الانسان ظاهر في كثير من نصوص القرآن والسنة فمن ذلك قوله تعالى (الذين آمنوا **أشد** حباً لله) وقوله (**ويزداد** الذين آمنوا إيماناً) وقوله تعالى (يبكون **ويزيدهم** خشوعاً) وقوله في الحديث القدسي (لا يزال عبدي يتقرب اليّ بالنوافل حتى أحبه ...) .

ويمكن أن تكون هذه الصلة من جهة النقص **سلبية** في حال إنكار الانسان لخالقه ، وجحوده لنعمه ، في أشد حالات الكفر المعبرة عن جهله المطبق لموقعه الحقيقي في الكون والوجود الذي يجعله معادلاً للحيوان الأعجم . ويمكن أن تكون دون ذلك كأن تكون **اعراضاً** وصدوداً أو **غفلة** وبعداً أو **نسياناً** وكل ذلك يمكن أن يكون مستمراً أو أن يكون عارضاً بين فترات من التذكر متدرجة في الرقي والصعود والقرب من الله .

صلة متبادلة بين الانسان وربه

٢ — إن هذه الصلة بين الله والانسان **صلة متبادلة متقابلة** . وذلك فضل من الله وتكريم للانسان وتشريف له . فالحب يكون من العبد لربه ومن الله لعبده فقد ورد في القرآن الكريم (يحبهم ويحبونه) كما ورد في آية أخرى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وقد وصف الرضى في القرآن بمثل ذلك (رضي الله عنهم ورضوا عنه) وقد تكرر هذا التعبير في أربع سور من كتاب الله (المائدة ١٢٢ — التوبة ١٠١ — المجادلة ٢٢ البينة ٨) ويظهر هذا المعنى كذلك في القرب والبعد فقد وصف الله نفسه بالقرب إلى الانسان فقال (فإني قريب أجيب دعوة

الداعِ إذا دعانِ) ووصف المؤمنين بالقرب فقال (والسابقون السابقون أولئك المقربون) ، وقال (يشهده المقربون) وفي الحديث القدسي (إذا **تقرب** إليّ عبدي شبراً تقربت اليه ذراعاً) .

ويظهر معنى التقابل كذلك في ذكر العبد لله وذكر الله للعبد كقوله تعالى (**فاذكروني أذكركم** واشكروا لي ولا تكفرون) وفي الحديث القدسي (إذا **ذكرني** عبدي في ملأ **ذكرته** في ملأ خير منه) ويقابلها **(نسوا الله فنسيهم)** .

وليس في الوجود شعور أجمل وأروع من شعور الانسان أن الله خالق الكون كله يبادله حباً بحب وذكراً بذكر وقرباً بقرب ورضى برضى .

الانسان حر ومسؤول

من جوانب هذه الصلة بين الله والإنسان **التكليف** من الله **والمسؤولية** بالنسبة للانسان . ويحتاج فهم هذه الصلة بين الله والإنسان إلى إيضاح نستمد عناصره وشواهده من القرآن العظيم :

١) خلق الله أنواعاً من المخلوقات وكلها لا تخرج عن إرادة الله ومشيئته ، ولكن بعضها يطيع إطاعة آلية آنية بلا إرادة ولا اختيار كالجمادات من معادن وحجارة وكالنجوم فهذه تخضع للسنن التي سنها الله والخطط التي قدرها لها وهي التي نسميها قوانين الطبيعة ، خضوعاً لا اختيار فيه ؛ ومنها ما يكون خضوعه بالغريزة كالحيوان ومنها ما يكون بأصل الخلق والجبلة كالملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون

ما يؤمرون ؛ وإلى هذه المعاني تشير آيات كثيرة كقوله تعالى (والنجوم مسخرات بأمره) وقوله (وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى) وقوله (وله ما في السموات والأرض كل له قانتون) .

أما الإنسان فقد خصه الله بطبيعة خاصة ذلك أنه جعله في بعض جوانب حياته كالمعادن والنجوم والجمادات خاضعاً لسنن الكون لا يستطيع الخروج عنها، فتنطبق عليه قوانين الجو الذي يعيش فيه بالضغط الجوي وقوانين الجسم من الهضم والدورة الدموية وقوانين الحرارة والضوء وغيرها من هذه السنن الكونية . ولكنه من جهة أخرى **خلق له قدرة وإرادة حرة مختارة** تختار ما تريد من الأفعال والتصرفات دون إكراه ولا إجبار .

وحرية الاختيار واضحة في مثل قوله تعالى (وهديناه النجدين) أي دللناه على الطريقين وقوله (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) وقوله (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) وقوله (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

وهذا التمييز في الخلق بين الإنسان المخلوق الحر وسائر المخلوقات التي ليس لها إلا طريق واحد لا اختيار فيه هو الذي تشير اليه الآية (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب **وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب)** « سورة الحج ١٨ » فجعل كل ما في الوجود **يسجد لله أي يطيعه عموماً** وأما الناس فقد قال عنهم (وكثير) أي يسجدون ويطيعون (وكثير) أي آخرون أيضاً يعصون ولا يسجدون . وهذا ناشىء طبعاً

عن **الارادة الحرة** التي شاء الله أن يمنحها للانسان بمحض مشيئته .

٢) هذه الحرية التي يتصف بها الإنسان من صنع الله وخلقه وتقديره ولذلك كان كل ما ينشأ عنها من أفعال سواء أكانت خيراً أم شراً بالنسبة إلى الإنسان ليس خارجاً عن مشيئة الله المطلقة لأن هذه **المشيئة هي التي قضت بخلق هذه الحرية** فلا يكون ما نشأ عنها إذن خارجاً عن إرادة الله العليا .[١]

على ان هذه الحرية التي خص الله بها الإنسان **مقيدة ومحدودة** ، وليست مطلقة . فالانسان يمارس هذه الحرية في نطاق نظام الكون المحيط به ، وهو لا يستطيع أن **يغير سننه وقوانينه** وإنما **يستطيع أن يستثمرها ويستفيد منها** فحسب ، لا أن يخرقها ويبدلها . فإذا كان الماء يغلي بدرجة معينة من الحرارة في الظروف العادية ، والحديد يتمدد بالحرارة ، والقمر يدور بسرعة معينة ، والماء يتكون من عنصري مولد الماء ومولد الحموضة بنسبة معينة ، وعملية الهضم ودوران الدم تجري على نسق معين ، فهو لا يستطيع أن يخرج على هذه الخطط والسنن ، ولا أن يخرقها ، وإنما يستطيع أن يستفيد منها ويستثمرها في تنوع أحوالها .

---

(١) هذه الارادة التي بها يسير الكون والوجود يطلق عليها بعض علمائنا القدامى صفة **الكونية** وأما الارادة **التشريعية** فهي التي تضمنت الأوامر والنواهي التي أراد الله من البشر التزامها وترك لهم حرية موافقتها أو مخالفتها ، واما الارادة الكونية فلا يخرج عنها بشيء مما يجري في الكون وليس من مقتضاها اجبار الانسان ولا إكراهه على فعل ما يفعل فاذا حصل من الانسان اختيار فعل وعزم عليه تعلقت الارادة الكونية بايجاده .

إن سير الكون على نظام معين ووفقاً لسنن معينة في تقديراتها **الكمية والكيفية** هو **(القدر)** أو هو (من القدر) والآيات القرآنية تشير إلى هذا إشارات واضحة ، وتستعمل لفظ التقدير وما يشتق منه بهذا المعنى . وذلك كقوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء **بقدر**) وقوله تعالى (والله **يقدّر** الليل والنهار) وقوله (والله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده **بمقدار**) وأوضح من ذلك وأصرح قوله تعالى (وخلق كل شيء **فقدره تقديراً**) وقوله (انا كل شيء خلقناه **بقدر**) .

فالانسان محاط **إذن بنظام كوني أو بقدر** أي بمجموعة من السنن والتقديرات والخطط ، وحياته نفسها بل حريته نفسها جزء من هذا النظام الكوني العام أو (القدر) أي ما قدر وفقاً لسنن وقوانين وينفذ تبعاً لهذه السنن المقدرة وذلك هو التنفيذ أو « القضاء » .

٤) إن هذا النظام الكوني كله والإنسان جزء منه بكل ما فيه حتى إرادته الحرة واقعة ضمن مشيئة الله ، وهي محيطة به . فبإرادة الله وُجد ، وبإرادته قدّرت خططه وسننه وقوانينه ، ولهذا كان الله عالماً به قبل حدوث حوادثه ، لأنه هو المقدّر للسنن التي تجري هذه الحوادث تبعاً لها ، كالمهندس الذي يقدّر لآلة يصنعها سرعة معينة واتجاهاً معيناً ، فهو يعرف لذلك موقعها قبل أن تكون فيه . والله سبحانه مقدّر سنن الكون ، والقاضي بحدوث حوادثه حين تحدث ، وفقاً لتلك السنن ، فهو يعرف (قَدَرها) المقدر لها ، و (قضاءها) حين تقع وتحدث تنفيذاً لتلك السنن المقدرة والقوانين المخططة .

٥) إن أفعال الإنسان الإرادية محاطة بسلاسل من القيود التي لا حول له فيها . فكتابته حين يكتب ، وقتله لعدو أو صيد ، أو قتله إجراماً وعدوانا لإنسان ، كل ذلك يكون بإرادات لم يخلقها خلقاً ، وبيده التي لم يخلقها ، وبخواص في الأشياء التي يستعملها للكتابة أو القتل ليس هو الواضع لها ، وإنما له في كل حادثة من هذه الحوادث حلقة صغيرة من حلقات كثيرة هي وحدها من كسبه واختياره وباقيها وما يحيط بها ليس من صنعه ولا من خلقه . لذلك ينسب الفعل اليه ولكن نسبة كسب لا نسبة خلق ؛ ولا سيما إذا لاحظنا أن إرادته الحرة نفسها مخلوقة لله أيضاً . لذلك كان من الخطأ الواضح القول بأن الإنسان **يخلق** أفعال نفسه لأن الخلق إيجاد شيء من عدم ، وهو لم يوجد شيئاً من العدم ، وإنما ربط شيئاً موجوداً بشيء موجود برباط ليس له فيه أيضاً شيء من الخلق ، فارتباط الأسباب بمسبباتها من حيث الأصل والمبدأ ، ومن حيث اقتران النتائج بالمقدمات ، والأسباب بالمسببات ، والعلاقة بينها هو من صنع الله وليس من صنعه ، ولذلك كانت مشيئة الله محيطة بمشيئة العبد (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله) ، وكانت أفعاله الناشئة عن اختياره بمجموعها وبما يحيط بها من خلق الله .

٦) ولكن الإنسان رغم ما يحيط به من قيود وسنن ، أو من (أقدار) ، قد أعطاه الله **إرادة حرة** ، ضمن نطاق هذه السنن والقوانين أو هذه الأقدار يستطيع بها أن يختار شيئاً من أشياء ، وطريقاً من طرق ، وهو بذلك صاحب إرادة أو مشيئة ، ولو كانت جزئية محدودة لا تقارب الإرادة الكلية المطلقة التي هي إرادة الله . وهو بذلك **يشاء ويريد ويفعل ويعمل ويصنع ويكسب** ، وقد جاء في

كتاب الله الكثير من الآيات التي تنسب إلى الإنسان الإرادة والمشيئة والفعل والعمل والكسب كقوله تعالى :

(وما ألتناهم[1] من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين) .

وقوله في البقرة وآل عمران :

(ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) .

وقوله : (وليجزي الله كل نفس ما كسبت) .

وقوله : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) . وقوله : (كل امرىء بما كسب رهين) . وقوله : (يعلم ما **تصنعون**) و (يعلم ما تفعلون) .

وقوله : (وما **يفعلوا** من خير يعلمه الله) . وقوله : (جزاء بما كانوا يعملون) .

وقوله : (إن هذه تذكرة فمن **شاء** ذكره) .

وقوله : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

وقوله : (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين) .

ولم يرد فعل الخلق منسوباً في القرآن إلى غير الله .

٧) إن الله تعالى إذ منح الإنسان الحرية والاختيار سهل **له السبيل**

---

(١) أي نقصناهم .

إلى ما يختار أياً كان اختياره ، فلا يحمله عليه كرهـاً ولا يجبره ، ولكنه **يسهل له سلوك** ما يختار من سبيل .

وفي هذا المعنى يقول الله تعالى في كتابه الكريم :

(فأما من أعطى واتقى وصدق الحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى **فسنيسره** للعسرى) .

ويلاحظ في هذه الآية **أن العبد هو الذي يبدأ بالاختيار** ثم يكون من الله **تيسير الطريق التي يختارها** دون أن يكرهه عليها . ومثله قوله تعالى : (فلما **زاغوا** أزاغ الله قلوبهم) . وقوله : (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) .

وقوله : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم) . وقوله : (ويضل الله الفاسقين) .

وقوله : (إن الله **لا** يهدي الظالمين) .

وقوله : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) .

وقوله : (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً) .

وأمثال هذه الآيات كثير جداً في القرآن ، وكلها يلاحظ فيها أن العبد هو الذي يبدأ باختيار السبيل الأقوم ، فتكون حينئذ

هداية[1] الله بفتح باب الخير له وتيسير سبله ووسائله ، أو باختيار طريق الشر ويتبع ذلك الإضلال من الله لمن بادر بالضلال واختاره لنفسه .

٨) في مقابل الحرية التي أعطاها الله للإنسان وفي حدود القدرة التي منحه إياها جعله مكلفاً ومسؤولاً .

ذلك أنه كلفه وأمره بأوامر على سبيل الاختيار والابتلاء والامتحان إذ جعل له إرادة حرة تختار لا على سبيل الإكراه والإجبار . ولو

---

(١) تأتي كلمة (الهداية) بمعنيين أحدهما تيسير سبيل الخير لمن يريدها وتسهيل أسبابها ، وذلك في مثل قوله تعالى : (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) .

وقوله : (ان الله لا يهدي القوم الظالمين) .

وقوله : (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) .

ويقابلها الإضلال ، أي فسح المجال لمن يريد الضلال دون إكراه ، كقوله : (ويضل الله الظالمين) . وقد اجتمع اللفظان في قوله تعالى : (فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء) .

والمعنى الثاني هو الدلالة على الخير والارشاد له عن طريق النبوات والكتب المنزلة كقوله : (يهدي الى الحق) و (يهدي الى الرشد) ، وكقوله تعالى : (واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمي على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ، ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

أراد الله لجعله مجبراً على العمل الذي يريده له طائعاً بالفطرة وأصل الجبلة ، كما جعل كثيراً من أنواع المخلوقات (ولو شاء لهداكم أجمعين) **أي لجعل الهداية فطرة وطبعاً أو غريزة أو استجابة كاستجابة الجمادات لسننها المقدرة لها** المعروفة اليوم بقوانين الطبيعة . وبهذا المعنى وردت الآية الأخرى : (ولو شاء الله ما أشركوا) أي لو شاء أن يحملهم على الهداية أو الاشراك **حملاً ويجبرهم عليها** أو يخلقهم كذلك لفعل ، ولكنه أراد أن يترك ذلك لاختيارهم واعتدائهم بأنفسهم وبمحض إرادتهم[1] .

(قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها) .

وإن أوامر الله الشرعية أو تعاليمه التي بلغها عن طريق رسله إلى الناس **ليست بالنسبة إلى البشر كأوامر الله الكونية** بالنسبة الى بقية المخلوقات كالأفلاك والجمادات وكالمعادن . لأن **انصياع هذه المخلوقات من أصل خلقتها حتمي وآلي** . وأما الأوامر او التعاليم الموجهة الى البشر فقد وجهت لا على سبيل الالزام الفطري وجعل الله للإنسان ارادة حرة يستعملها كما يشاء في تنفيذ هذه الأوامر أو عدم تنفيذها وذلك هو الابتلاء الذي خص به الانسان (ليبلوكم فيما آتاكم) المائدة ٤٨ .

(إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج **نبتليه** فجعلناه سميعاً بصيراً) وربما كان حمل المسؤولية هو الأمانة التي وردت في قوله تعالى : (إنا

---

(١) ولذلك رد القرآن على المشركين الذين احتجوا بأن شركهم كان لأن الله شاءه أي أن الله حملهم بارادته على الشرك وشاء ذلك ، وذلك في قوله تعالى : (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا) إذ أن الله خلق لهم إرادة حرة يختارون بها ولم يجبرهم بارادته الملزمة على إحدى الخطتين ولو شاء ذلك لفعل ولكنه شاء أن يكونوا أحراراً في اختيارهم .

عرضنا الأمانة على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وحملها الانسان) .

والتكليف والابتلاء بقدر ما اوتي الانسان من قدرة وحرية : (ولا تكلف نفس الا وسعها) (لا يكلف الله نفساً الا ما آتاها) .

٩) ان مسؤولية الانسان أمام الله مسؤولية فردية ومباشرة . وهذا المعنى ظاهر في قوله تعالى : (ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) . وفي قوله : (كل نفس بما كسبت رهينة) . لذلك كان لقاء الانسان لله في الآخرة لمناقشة الحساب لقاء **فردياً** : (وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً) ، (ان كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن فرداً) ، (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) (ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً) . « مريم »

١٠) إن الله الذي خلق الكون وقدر سننه وأجرى حوادثه وفق تلك السنن التي قدرها **عالم به وبحوادثه قبل وقوعها** ، وهو الذي خلق الانسان وخلق له إرادة حرة وهو عالم به وبما سيختار . **وعلم الله هذا السابق لوقوع الحوادث** ومن جملتها **أفعال البشر لا يقتضي حمل الناس وإكراههم على تنفيذ مقتضى علمه** . ولنضرب مثلاً من البشر أنفسهم على سبيل التقريب والتوضيح — ولله المثل الأعلى — : فلو ان معلماً عرف من مجرى حياة تلاميذه خلال السنة كلها صفاتهم وعاداتهم ومواهبهم لتمكن قبل الامتحان من ان يعرف إلى حد كبير الناجح والراسب . إن سبق علم الله لما يفعل العباد من أفعال لا يستلزم اي نوع من الاجبار على فعلها وإنما هي ناشئة عن اختيار حر او إرادة حرة في الانسان خلقها الله كذلك .

١١) إذا كان ما يجري في الكون من حوادث وما يفعله البشر كذلك من أفعال ضمن مشيئة الله وتحقيقاً لقوانين او خطط او سنن قدرها لها فلا ينتج عن ذلك وقوف الانسان أمامها موقف الموافق لها والراضي عنها كلها . لأن من تلك التقديرات الإلهية إرادة الانسان ومن الأوامر الالهية الموجهة الى الانسان ان يتولى تغيير أحوال واوضاع واقعة اي مقدّرة . فالقرآن الكريم يأمر الانسان بمحاربة الكفر والظلم ، وكذلك السنة . ومعنى ذلك ان بعض ما يجري في الكون من الأقدار نفسها ينبغي مكافحته ، وهذه المحاربة او المكافحة نفسها من القدر . وقد قال احد الصحابة في تجنب الطاعون حينما ظهر في بلاد الشام : افرار من قدر الله ؟ فأجابه عمر رضي الله عنه بقوله : نفر من قدر الله إلى قدر الله . ونقل ايضاً ابن تيمية عن الشيخ عبد القادر الجيلاني تعبيراً استحسنه في هذا المعنى وهو قوله : (انا اغالب الأقدار بالأقدار) .

وهكذا يخطىء من يظن أن الإسلام يطلب من الإنسان أن يقبل الواقع مطلقاً واياً كان ذلك الواقع، وتسقط حجة من يقول كذلك بقبول الواقع لأنه قدر الهي . فمن القدر ما أمرنا أن نقاومه بقدر مثله ، فعملنا نفسه جزء من القدر . إن الأحوال التي يطلب فيها الرضى بالقضاء والواقع هي تلك التي لا حول فيها للانسان ولا طول ، كالمصائب التي لا يستطيع الإنسان دفعها فليس له في هذه الحالة إلا الصبر . وأما اذا كان قادراً على دفعها قبل وقوعها فيجب عليه أن يفعل كدفع حريق يمكنه اطفاؤه ومن هذا القبيل مكافحة المرض بالتداوي وقد ورد في الحديث الأمر بالتداوي ، ومن ذلك مكافحة الفقر بالسعي والكسب فإن الفقر مصيبة استعاذ الرسول ﷺ بالله منها وقرنها بالكفر في قوله (اللهم إني أعوذ بك

من الكفر والفقر) .وحياة الرسول ﷺ وأصحابه دليل واضح وشرح عملي لنظرة الإسلام الى القدر . فقد كانت حياته عليه الصلاة والسلام كلها جهاداً ومكافحة للوثنية والشرك ومحاربة للظلم والمفاسد وسعياً دائباً لتغيير أوضاع المجتمع لإقامته على أسس صحيحة في العقيدة والفكر بتحريره من عبادة غير الله ، وعلى تنظيم سليم يتحقق فيه العدل بين الناس وفقاً لما شرع الله .

الانسان وحقائق الوجود

يتصل الإنسان – كما يبدو من تتبع آيات الكتاب الكريم – بنوعين من حقائق الوجود ولكل منهما طريق لكشف حقائقه :

١ – فهناك عالم يمكن أن نطلق عليه اسم عالم **الشهادة** – أخذاً من التعبير القرآني – وهو العالم المحسوس أو الكون أو الطبيعة أو ملكوت السموات والأرض . وما أكثر ما يلفت القرآن نظر الإنسان الى حوادث هذا العالم ومشاهد آفاقه كما سبق بيان ذلك . وحين يشير القرآن الى هذه الحوادث والمشاهد يستعمل الألفاظ الدالة على الحواس كالرؤية والنظر والسمع، أو الدالة على التفكير في اول الآية المتضمنة لذلك او في آخرها كقوله (أولم يروا – ألم تر – انظروا – أفلم ينظروا – أفلا تبصرون – تبصرون – يعقلون – يتفكرون – أولم يتفكروا ... الخ) وقد سبقت شواهد كثيرة على ذلك في بحث الكون في القرآن وفي بحث صلة الإنسان بالكون ، كما سبق الاستشهاد بحديث تأبير النخل المتضمن تجربة انسانية لمعرفة حقيقة تتصل بالزراعة والنبات .

ومن هذه الشواهد تبين أن العقل الإنساني بدلالة الحواس وبالاستعانة بها يصل الى هذه الحقائق ويكتشفها شيئاً فشيئاً ويقيم عليها حضارته المادية فيزرع الأرض ويقيم العمران ويضع الآلات ويسخر لمنفعته ما في الكون من أشياء وما لحركة حوادثه من سنن وقوانين بعد أن يكتشفها .

٢ — وهناك عالم آخر يمكن أن نطلق عليه عالم (الغيب) ويشمل من الوجود ما لا تصل اليه الحواس ولا يتم تحت التجربة ولا يدرك العقل حقيقته ولا تفاصيلة ، ولكنه قد يرشد إلى طريق آخر لمعرفته ولاسيما بعد أن انتهى من تطوافه في الكون إلى الايمان بخالق العالمين عالم الغيب والشهادة .

هل هناك حياة وراء هذه الحياة ؟ ما هو مصير الانسان النهائي ؟ هل هناك حياة ومخلوقات وراء ما ندركه في هذا الكون سواء أكانت فيه وتدق عن إدراكنا أو كانت وراء ما تبلغه وسائل إدراكنا ؟ ثم ما هي مقاييس الخير والشر في الوجود ؟ وما هو حينئذ السلوك الأمثل في حياة الإنسان ؟ هل من صلة بين الانسان وخالق الكون ؟ ما هي هذه الصلة وهل تحمل الإنسان واجبات معينة وسلوكاً محدداً ؟

إن طريق الوصول الى حقائق هذه الأسئلة ، الذي يدلنا عليه القرآن ويدعونا — عن طريق القناعة العقلية أيضاً — إلى الايمان به طريقاً موصلاً هو النبوة أو الوحي الالهي الملقى الى أفراد من البشر اصطفاهم الله لتبليغ البشر ما يريد إبلاغه من الحقائق التي قد يصل العقل او يقصر عن الوصول اليها وإن كان هذا العقل يبقى هو نفسه أداة المراقبة

ووسيلة الارشاد إلى النبوة نفسها لاثبات أصل مبدئها ولاثبات صحتها وصدق مدعيها .

مصدرا الحضارة

وقبل ان نعرض وجهة نظر الاسلام او العقيدة الاسلامية في موضوع النبوة نود ان نلفت النظر إلى ملاحظة هامة جداً في تاريخ البشر والحضارة الانسانية . ان للحضارة جانباً مادياً ارتقى وما زال يرتقي منذ اكتشف الانسان القديم النار بقدح الحجارة إلى عهد الذرة والصواريخ ، إن هذا الجانب من الحضارة بعمرانه المتزايد وارتقاء وسائله وأدواته ومصانعه ومخابره وما أدى اليه من خدمات زادت رفاهية الانسان وضاعفت نشاطه وأسرعت به في الوصول إلى اهدافه انما هو نتيجة تجارب بشرية كانت الحواس أداتها والعقل هو المرشد اليها . ولا يزال الطريق للسير مفتوحاً ولا تزال آفاق المجهول في الكون واسعة (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم) .

ولكن للحضارة جانباً آخر يتجلى في التعاليم الخلقية والدينية التي نجدها في أقصى عصور التاريخ بعداً وفي شتى الشعوب والأقوام والقبائل على اختلاف مستواها العقلي والمادي ، ونجد فيها على اختلافها احياناً اشتراكاً وتشابهاً . ويبدو لنا أن هذه التعاليم ليست نتيجة تجارب البشر الحسية والعقلية بل إن اكثرها لا يدرك اصحابها علتها ولا اصلها ومصدرها ولا اتفقوا عليها حتى اصبحت مشتركة ، وقد تظهر في اقوام وشعوب لم يسبق لها في العصور القديمة لقاء لا في ميادين السلم ولا في ميادين الحرب .

إن شمول هذه التعاليم لجميع الشعوب في العصور السابقة وعدم التناسب بين هذه التعاليم ومستوى تلك الشعوب العقلي بحيث انها لا تدرك عللها ولا مراميها . وبعض هذه التعاليم لم يعرف الانسان عللها الا في عصور متأخرة كل هذا يدل على ان للجانب المعنوي او الخلقي والديني مصدراً آخر في تاريخ البشرية غير مصدر العقل والتجربة .

واننا نجد فعلاً ظاهرة في تاريخ البشرية بدت في مختلف بقاع الأرض وشعوبها وهو ظهور **رواد للجانب الخلقي والروحي** غير رواد الجانب المادي ويختلفون عنهم في حياتهم وشخصياتهم اختلافاً بيناً وتلمع في التاريخ أسماء محمد وعيسى وموسى وابراهيم ونوح وقد يكون من هذا الصنف من البشر بوذا وكونفوشيوس وزرادشت مهما يكن قد أدخل على تعاليمهم وشخصياتهم من تبديل .

اننا نجد ان كل شعب يرجع في اصل تعاليمه الأخلاقية الى شخصية تاريخية لها عنده مكانة عظيمة وحرمة زائدة وان مجموع هذه الشخصيات يؤلفون في مجموعهم — من الوجهة التاريخية — نموذجاً خاصاً من البشر من حيث سلوكهم المثالي وشخصيتهم الخلقية والروحية .

ان تاريخ البشرية ليس هو تاريخ حضارته العمرانية والمادية وما يتصل بها من علوم فحسب وانما يتألف هذا التاريخ من جانبين ومن خطين : من الحضارة المادية وما يتبعها ، ومن التراث الخلقي والروحي ، وهو أهم الجانبين وأعلاهما قيمة . وان من الخطأ الفاضح هذا التصور الذي نتصور من خلاله التاريخ والذي يكتبه المؤلفون ويدرسونه للاجيال ، والمبني على تصور جانب واحد من تاريخ الحضارة الانسانية . ان تاريخ التراث الخلقي

والروحي وتاريخ النبوات والأنبياء اما ان يهمل واما ان يذكر على انه جزء من ذلك الجانب المادي ، كأن ينظر الى حوادثه المتصلة بذلك الجانب ومن خلال النظرة المادية ومن زاويتها . وبذلك تكون الغلبة للجانب المادي ونظرته ويكون نصيب ذلك الجانب الأهم الاهمال أو الانتقاص ، حتى كأنه قطعة زائدة من هذا التاريخ لا يتغير شيء بحذفها .

وإن كثرة التفاصيل في الجانب الأول– على تفاهة الكثير منها أحياناً (١)– وكثرة الحوادث التي تملأ المجلدات الضخمة اذا قيست باخبار الجانب الخلقي والروحي القليلة المادة لا تعني أبداً أهمية الجانب الأول بالنسبة الى الثاني وليس ذلك الا كالقول برجحان القناطير من الحطب على الوزن القليل من الماس أو البلاتين أو أشعة الأورانيوم .

موقف القرآن من طريقي الحضارة

١) لقد عني القرآن بالجانب الأهم من تاريخ البشرية وهو تاريخ النبوات والرسالات والدعوات . ولكنه رسم اطار الجانب الآخر بوضوح وعرض لتاريخه بقصد التوجيه الى العبرة من حياة الماضي المادية وانها

---

(١) وذلك كالاهتمام بمآكل وملابس الفراعنة أو الاحوال البيتية لنابليون واذا كانت هذه التفصيلات تفيد كبار الباحثين ليستنتجوا منها نتائج تتصل بها، والقصصيين ليعيدوا صورة التاريخ في قصصهم، فهي ليست ذات فائدة لصغار التلاميذ،بل انها تشغلهم عن الجانب الأهم وتنمي فيهم الاهتمام بالجانب المادي بل قد توحي اتجاهات سيئة في نفوسهم كمخازي بعض رجالات التاريخ الذين هم أبطال في نظرهم فيزين ذلك مخازيهم في أعينهم.

ليست هي الخالدة كقوله تعالى :

(كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين) « الدخان » . وقوله (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم : كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) « الروم » . وقوله عن مملكة سبأ (لقد كان لسبإٍ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال) « سورة سبأ » وقوله : (فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد) « الحج » وقوله في أثناء قصة سبأ وسليمان : (قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة قال انه صرح ممرد من قوارير) « سورة النحل » .

وهكذا يأتي الحديث عن مدنيات بعض الامم السابقة في معرض العبرة بعاقبة اعمالهم ونهاية مصيرهم . هذا من **ناحية التاريخ** وأما من **ناحية التوجيه** بالنسبة الى المستقبل فالدعوة في القرآن الى النظر في الكون واستثمار ما فيه من منافع واضحة ومتكررة . وقد سبق الكلام عنها في الحديث عن صلة الانسان بالكون .

٢) ولكن القرآن عني اكثر ما عني بذكر شواهد من **تاريخ الدعوات المتعاقبة** التي وجهت الانسان الى التحرر من العبودية لغير الاله الخالق ودفعته الى الصلة بالله والتفكر في المصير وأشعرته بالمسؤولية أمام الله وذكرته بالحساب على الأعمال وأرشدته الى المثل العليا ومكارم الأخلاق .

لقد عني القرآن بهذا التاريخ وعني برواد هذا الجانب الأسمى من تاريخ الانسانية وذكر أمثلة منهم ممن كانوا قريبين من مهبط الوحي القرآني وأشار الى غيرهم ممن لم يذكرهم (ورسلاً قد قصصناهم عليك ورسلاً لم نقصصهم عليك) .

في سور كثيرة من سوره[1] يعرض القرآن قصة الصراع بين الحق والباطل بين الخير والشر والهدى والضلال والعبودية الذليلة لغير الله والحرية المتولدة من عبادة الله وحده وعظماء هذا الصراع وأبطاله هم رسل الله الأنبياء الذين لم تخل منهم أمة ولا شعب .

ان حياة الانسان وتاريخ البشرية قائمان على نوعين من الصراع : صراع للكسب المادي سواء أكان هذا الصراع مع الطبيعة لتسخيرها وتذليلها ام كان مع الانسان لسلب ما عنده والاثراء على حسابه ، وتاريخ هذا الصراع — الذي هو تاريخ العلوم المادية وتاريخ الدول والحياة السياسية — قد عنيت به كتب كثيرة . أما النوع الآخر فهو الصراع بين الانسان ونفسه بين الانسان وأهوائه وشهواته بين الانسان الفاضل الخير والانسان السيء الشرير وغايته ترقية الانسان نفسه وتهذيبه وتقريبه من المثل الأعلى من الله وهو أعظم التاريخين وأرفعهما ، وأسمى الصراعين وأفضلهما ولا تعارض بينهما بل ان الكسب الخلقي المعنوي

---

(١) انظر بوجه خاص سورة هود والأنبياء ففيهما قصص كثير من الانبياء وتجد كذلك قصصهم مفرقة في اكثر سور القرآن .

الذي هو غاية النوع الثـاني من الصراع متمم ومصلح للنوع الأول من الصراع .

ما هي النبوة كما تبدو في القرآن؟ ومن هم الأنبياء ؟ ما هي وظيفتهم ورسالتهم ؟ ما هو عددهم ؟ وما هو موقع محمد بن عبـدالله النبي العربي صلوات الله عليه من هؤلاء الأنبياء وما موقع رسالته من رسالاتهم ؟



النـــبوّة

(١) **الانبياء من كل الشعوب .**

ليست النبوة مقصورة على بقعة معينة من الأرض ولا على شعب او بضعة شعوب بل هي في نظر الاسلام وكما يصرح القرآن عامـة في كل الأمم والشعوب الماضية فقد ورد في الكتاب الكريم :

(ولقد بعثنا **في كل أمة رسولاً** ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)

(وإن من أمة إلا خلا فيها نذير)(ولكل أمة رسول). «يونس ٤٧ »
(ولكل قوم هاد) . « الرعد ٧ »

والأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن ليسوا اذن كل أنبياء الله وانما هم بعض الأنبياء كما تصرح آيتان من القرآن الكريم بذلك :

(ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك **ومنهم من لم نقصص عليك**) « القصص »

(ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك)

وعلى هذا فقد يكون كثير ممن اشتهروا بدعواتهم الخلقية والدينية وحياتهم المثالية في مختلف الشعوب أنبياء وان لم يذكروا في القرآن .

(٢) الأهداف الاساسية ووظيفة الانبياء :

أ) ان أهم الأهداف الاساسية لارسال الرسل تحرير البشر من عبادة الطبيعة كالشمس أو القمر او الحيوانات او غيرها أو الانسان وتوجيههم لعبادة الله الخالق وحده .

(وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا إله الا انا فاعبدون)

(ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)

ولو ترك الانسان لنفسه بادىء ذي بدء وفي عصوره الاولى لجنح الى عبادة ما ينفعه او ما يرهبه ويخاف منه من هذا الكون ، وما كان عقله ليوصله وحده الى عبادة الاله الواحد خالق الكون ، فكان تدارك الله له ورفعه عن الانحطاط بعبادة ما هو في الأصل مسخر له من اجزاء هذه الطبيعة كالشمس او القمر او بعض أنواع الحيوان ، وكانت النبوة والوحي الالهي الطريق الى هذه الحقيقة الكبرى التي هي عبادة الله وحده والايمان به .

لذلك كان الأسبق – في نظر الاسلام وفي صريح كتابه – عقيدة التوحيد لا الوثنية عن طريق الانبياء الموحى اليهم بهذه الحقيقة وأولهم أبو البشر آدم . والوثنية هي عودة الى الانحطاط وانحراف يأتي حين يبعد العهد بالنبوة في فترات بين النبوات ثم تأتي نبوة ثانية لتعيد الانسان

الى الحقيقة ، وهكذا يتعاقب التوحيد والشرك ، او التنزيه والوثنية في تاريخ البشرية .

ب) ومثل عقيدة التوحيد الحقائق الاخرى التي لا يدركها العقل بنفسه كمسؤولية الانسان أمام الله في الحياة الآخرة : (يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر **يوم التلاق**) « الزمر »

(وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم **وينذرونكم لقاء يومكم هذا**) « الزمر » .

ج) ومن أهداف الرسالات ومهمات الانبياء هداية الناس الى طريق الخير وتمييز الخير من الشر وتحديد قواعد السلوك المؤدية الى القسط والحق في الحياة [1] وهذا الجانب من تعاليم النبوات قد يختلف من نبوة الى أخرى وقد تنسخ نبوة ما تأتي به نبوة أخرى وذلك مراعاة لأحوال الشعوب والعصور فقد حرم على بني اسرائيل تأديباً لهم وعقوبة أمور أحلت في رسالة الاسلام وفي تعاليم نبوة محمد ﷺ [2] ، وهكذا قد تتبدل قواعد الأخلاق والتشريع وتبقى اتجاهاتها العامة وذلك خلافاً

---

(١) لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط (سورة الحج) .

(٢) والى هذا تشير الآية الكريمة : فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم .

ولهذا وصفت التوراة بأنها (هدى لبني اسرائيل) اكثر من مرة ووصف المسيح بأنه كان نبياً (ورسولاً الى بني اسرائيل) .

للنوع الأول من الحقائق التي هي الحقائق الايمانية الكبرى الثابتة كالايمان بالله والدعوة الى عبادته وباليوم الآخر والحساب ولعل هذا الجانب هو (الاسلام) الذي أطلق على جميع الأديان التي جاء بها الأنبياء كابراهيم ونوح وموسى وعيسى ...

ومهمة الأنبياء بالجملة هداية الناس وإخراجهم من الظلمات الى النور في الايمان والعقيدة وفي الأخلاق والسلوك .

(٣) الانبياء :

أفراد من البشر هداهم الله الى الصراط المستقيم **واصطفاهم واجتباهم وأرسلهم** لهداية الناس وليكونوا لهم قدوة فقد ورد في القرآن الكريم :

(الله **يصطفي** من الملائكة رسلاً ومن الناس)

(ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم ...)

(ولكن الله **يجتبي** من رسله من يشاء)

(واجتبيناهم **وهديناهم** الى صراط مستقيم)

(أولئك الذين **آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة** فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين **هداهم الله فبهداهم اقتده** ...) « الانعام »

ووصف محمد ﷺ أكثر من مرة بأنه (يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) « آل عمران والجمعة » .

فالانبياء **بشر وليسوا آلهة** ولا أنصاف آلهة ولا جزءاً من الاله ولا

أبناء للإله وليس لهم صفة الالوهية مطلقاً .

(قالت لهم رسلهم إن نحن الا **بشر** مثلكم) .

(ما كان **لبشر** أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله) .

(قل انما **أنا بشر** مثلكم يوحى الي) .

ولذلك وصف الانبياء بالعبودية وندد القرآن بمن يعبدهم وذلك في مثل قوله :

(كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا **عبدنا**) (واذكر **عبدنا** داود) (واذكر **عبدنا** أيوب) وقال عن المسيح (ان هو الا **عبد** أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني اسرائيل) وعنه ايضاً (قال اني **عبدالله** آتاني الكتاب وجعلني نبياً) وعن محمد ﷺ (سبحان الذي أسرى **بعبده**) و (تبارك الذي نزل الفرقان على **عبده** ليكون للعالمين نذيرا) .

وقال تعالى : (ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً) .

فالانبياء اذن أفراد من البشر مصطفون اصطفتهم العناية الالهية وجعلهم الله نماذج كاملة ومثلاً للاقتداء في رقي انسانيتهم وسمو نفوسهم وعلو أرواحهم وخلوص نفوسهم لله واختارهم لتبليغ رسالاته وتعاليمه الى البشر .

وقد أوجب القران الايمان بهم على هذا الاساس بلا تفريق فكلهم أوتي النبوة اي الاصطفاء الالهي لاداء رسالة معينة (لا نفرق بين أحد

من رسله [1]) من حيث الايمان بأنهم أنبياء .

مراتب الانبياء :

ولكنهم أنفسهم على درجات ومراتب بحسب عظم الرسالة التي يحملونها من جهة شمولها مكاناً وزماناً (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) فليس النبي الذي أرسل الى (مئة الف او يزيدون) كالذي ارسل الى شعب بكامله كبني اسرائيل أو ثمود او عاد ، وليس هؤلاء كالذي أرسل الى الناس كافة ليكون رحمة للعالمين مبلغاً لخاتمة الرسالات وأشملها وأوسعها وأخلدها .

طبيعة النبوة [2]

تمهيد :

ان آفاق المجهول لا تزال واسعة ، ولكن منها ما لا يستطيع العقل مطلقاً بحكم طبيعته وأدواته ، أن يصل اليها ، لأنها من نوع وطبيعة مختلفة لا تتفق مع الطريقة العقلية التجريبية . وإن الاعتقاد باقتصار الوجود على الحقائق المعلومة التي أدركها الإنسان وعلى هذا النوع الحي

---

(١) سورة البقرة ٢٨٥ .

(٢) يقصد بهذا التعبير بيان ماهيتها وتقريبها من الأذهان وتمييزها من غيرها من اسباب الظهور والارتفاع بين البشر كالنبوغ والذكاء والعبقرية والبطولة وإن حقيقتها تختلف عن جميع هذه المظاهر والصفات في نوعيتها وتعلو عليها علواً كبيراً .

من حقائق الوجود يدل على ضيق في التفكير وجمود فيه . وكذلك الاقتصار على نوع من أنواع التجربة وهو التجربة الحسية . إن في الكون جمالاً لا يدرك بالحساب والكمية ولا يدرك إلا بالإحساس الفني الذي يقتضي ذوقاً خاصاً هو نتيجة لرياضة وتدريب فني . وإن في الكون حوادث روحية وآفاقاً غيبية تدل عليها وقائع حدثت في جميع العصور وعند جميع الأمم وتؤكدها وتقربها إلى الأذهان حوادث انتقال الأفكار والتنويم المغناطيسي التي لا يزال موقف العلم المادي منها موقف المعارض لدخولها في حظيرته .

إن عدداً من المفكرين في هذا العصر كالدوس هكسلي وألكسي كاريل وغيرهما يؤكدون وجود حوادث من طبيعة أخرى روحية وآفاق غير الآفاق التي يجول فيها العلم ، ويعتقدون كذلك أن في الإنسان موهبة خاصة يدرك بها هذا النوع من الحوادث ، وهذه الموهبة أو الفعالية الروحية تتفاوت من فرد إلى فرد وتحتاج الى مران ودربة وتربية كسائر الملكات والمواهب ويقولون بوجود تجربة روحية كالتجربة الحسية ، ويستدل هكسلي من وجود التجارب الروحية عند جميع الأمم وفي مختلف الديانات ومن وصول أصحابها وهم من كبار المتصوفين إلى نتائج متشابهة [١] رغم اختلاف عقائدهم وأقوامهم وعصورهم على صدق هذه التجارب ولاسيما أن أصحابها في كل أمة وملة هم من الذين عرفوا بالعزوف عن المآرب الشخصية والأغراض الخاصة وقد تخلو في سبيل ذلك عن

---

(١) وهو الوصول الى الايمان بالله الواحد المنزه عن الصفات البشرية والحسية كما يصرح بذلك هكسلي في كتابه الغايات والوسائل في فصل العقائد .

كثير من الملذات والشهوات الحسية وعنوا بتنمية هذه الفعالية الروحية في أنفسهم . وإذا كان للعالم المادي رواده ونبغاؤه من المكتشفين والمخترعين من الفيزيائيين والرياضيين ، فلماذا لا يكون للعالم الروحي رواده كذلك . بل إن رواد العالم الروحي من الأنبياء ودعـــاة الروح – ولا نعني بهم طبعاً جميع المتمسكين بالمظاهر الدينية أو المحترفين – هم من الصفوة المختارة من أبناء البشر في سمو خلقهم وفي عمق أثرهم العملي والاخلاقي في تاريخ الحضارة وهم في عددهم أقل وأندر من نبغاء العالم المادي .

وإذا كان اكتشاف العالم المادي أمراً لا يستطيعه كل إنسان بل لا بد له من مواهب خاصة ونبوغ عقلي يؤهل صاحبـه ليكون من رواد هذا العالم المادي ، فذلك في أفق العالم الروحي اولى لكونه أخفى وأدق ولأن ما يقتضيه من المواهب والنبوغ أندر في البشر وأقل . ولذلك كان لا بد للبشر من موجهين ومرشدين ورواد مكتشفين في آفاق الحيـــاة الروحية والعالم الغيبي . ويأسف كاريل في هذه المناسبة في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) لاتجاه الحضارة الحديثة اتجـــاهاً يضعف الفعاليات الروحية .

* * *

إن الإسلام ، كما قلنا سابقاً ، يقسم الوجود إلى نوعين عالم (الشهادة) وهو العالم المحسوس **وأداة معرفته** الاجمالية والتفصيلية **العقل** وطريقـــه التجربة وأعوانه الحواس وهذا ما نلاحظه في القرآن الكريم حين الكلام على (ملكوت السموات والأرض) أو عالم (الشهادة) . والثاني هو عالم (الغيب) **وطريق معرفته الكشف الروحي ، والوحي** أكمل أشكاله

وأرفعها . وهذا النوع من المعرفة له وسائله وأساليبه وملكاته وحوادثه الخاصة . ومن الخطأ أن تطبق مقاييس عالم الشهادة على هذا العالم وكذلك طرق المعرفة وأساليبها . والعلم المادي لا يستطيع أن يبحث في بداية الوجود ونهايته وفي علة النظام القائم في الوجود وأسراره وفي الروح المسيرة للكون المدبرة لنظامه وفي غير ذلك ايضاً من آفاق الوجود الروحي أو غير الحسي .

وإذا كنا قد بينا في الفصول السابقة أن للوجود خالقاً مدبراً أوليس من المقبول بل المرجح عقلاً أن لا يدع الله الانسان وهو أرقى مخلوقاته في الأرض دون إرشاد وتعليم ولاسيما في المجال الذي لا يستطيع هو بنفسه أن يكتشف مجاهله . ولذلك كان من حكمة الله أن يكون ثمة طريقان يصل بهما الانسان الى معرفة حقائق الوجود :

احدهما العقل الذي خلقه الله فيه وجعله قوة نامية وبه يدرك حقائق العالم المحسوس وإن كان إدراكه لهذا العالم نفسه أيضاً ناقصاً غير كامل ومتقدماً تدريجياً خلال العصور والأزمان .

وأما **الطريق الثاني** فقد جعله الله لادراك حقائق العالم الغيبي وما وراء العالم المحسوس مما لا يستطيع العقل وحده إدراكه لأنه من طبيعة مختلفة عن طبيعته وذلك لئلا يدع الانسان جاهلاً غافلاً عما وراء هذا الكون ولان وراء ذلك مسؤولية يتحملها الانسان إذا بلغ وأقيمت عليه الحجة . وعن هذا الطريق يكون وصل الانسان بعالم الغيب والكشف عن الحقائق الكبرى وأهمها الحقيقة الإلهية . وهذا هو **طريق الوحي** إلى الأنبياء ، أو طريق اتصال صفوة مختارة من بني البشر ، خصهم الله

بمواهب روحية فائقة وبطاقة روحية عظيمة ، بالحقيقة الالهية وبحقائق العالم الغيبي غير المحسوس . فوظيفتهم بالنسبة إلى هذا العالم كوظيفة العقل بالنسبة إلى العالم المحسوس وهي كشف حقائقه لبني البشر ، وإرشادهم اليها ، ووصلهم بها ، وتنمية ما فيهم من فعالية واستعدادات روحية .

ومهمة الانبياء هذه في الحياة لا يغني عنها تطور العقل ولا تقدم العلم ، ولا يحل محلهم علماء المادة والمكتشفون لأسرار الكون والمخترعون وأمثالهم من رواد العالم المادي ، أضف إلى ذلك حاجة البشر إلى معرفة القيم المطلقة للخير والشر وإلى تنمية الشعور الخلقي العميق المتصل بالحقيقة الالهية وهي حاجة كذلك دائمة لأن البشر يقيسون الخير والشر بمنافعهم ومصالحهم العاجلة وفي حدود بيئتهم . ولكن **العقل** يبقى دائماً طريق التصديق والاقتناع وأداة التحقيق والمراقبة وعن طريقه يتحقق الانسان صدق ادعاء النبوة ولذلك كان خطاب الأنبياء للناس ودعوتهم إلى الايمان بنبوتهم عن طريق العقل وقناعته .

وقد كانت حاجة البشرية في مراحل حياتها الأولى إلى تعاليم النبوة وارشادها أشد . ذلك ان العقل كان قاصراً محدوداً ، يذهله في الكون عظمة أفلاكه ، وتبهره الشمس والقمر والكواكب ، وتخيفه الرياح والرعود فيحمله ذلك على تأليه بعض أجزاء هذا الكون العظيم ، ويخضع للطبيعة ويخافها . فاختار الله من البشر رسلاً لينقذوهم من هذه الأوهام ، وليحرروهم من الخرافات العائقة للتقدم ، وليدعوهم إلى عبادة الله وحده (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) ، « النحل ٣٦ » .

صفات النبي الاساسية

إن الصفات الأساسية التي وصف بها القرآن الأنبياء صلوات الله عليهم هي :

١ ــ كونهم بشراً :

فالنبي عبدالله وواحد من خلقه ، لا يعلم من الغيب إلا ما يعلمه الله ولا يستطيع أن يغير نظام الكون إلا إذا أذن الله أن يجري على يديه معجزة خارقة لحكمة يريدها . وقد ذكر القرآن تعجب القرشيين من كون الرسول بشراً كسائر الناس يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ولا تكون له حياة خارقة لسنن الطبيعة البشرية (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها .) « الفرقان ٢٠ » .

وتجري على الرسول سنن الكون إلا إذا أذن الله بغير ذلك فهو يعيش ويموت كما يعيش البشر ويموتون (إنك ميت وإنهم ميتون) « الزمر ٣٠ » . (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد افئن مت فهم الخالدون) « الأنبياء ٣٤ » . (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء . إن أنا إلا نذير وبشير) « الأعراف ١٨٨ » ، وقد عرف من سيرة النبي ﷺ انه كان يقع له ما يقع لسائر البشر من الجوع والشبع والري والعطش والمرض والصحة والجرح والبرء ، وقد تكرر وصف القرآن له ولسائر الأنبياء

بالبشرية والعبودية كقوله تعالى : (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى اليّ) « الكهف وفصلت » وقوله : (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا باذن الله) « إبراهيم ١٢ » . وقد تكرر كذلك في القرآن نفي الالوهية وصفاتها عن الأنبياء ، وتكفير من يعتقد مثل هذا الاعتقاد ، والتنديد بمن يطلب من النبي ما لا يطلب إلا من الله ، وذلك إلى جانب تأكيد صفة البشرية .

قال تعالى : (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله) « آل عمران ٧٩ » .

وجاء في سورة الاسراء جواباً على طلب المشركين حين قالوا : (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه) ، وهذه كلها مطالب لا تطلب من بشر ولكنها تطلب من الله ولذلك جاء الامر بالاجابة عليها : (قل سبحان ربي هل كنت الا **بشراً رسولا** .)

عصمة الانبياء :

ولكن وصف الانبياء بالبشرية لا يمنع من وصفهم بالكمال . فهم

موصوفون بصفات الكمال لانهم قدوة للبشر [1] . ولا شك أن الله وهو العليم الحكيم يختار رسله من أكمل البشر وأحسنهم خلقاً وأمثلهم طريقة ليكونوا نبراساً للهداية ومثلاً للاقتداء . ولو نظرنا في سيرة محمد خاتم المرسلين ﷺ لوجدناه قد بلغ الغاية في الكمال في جميع نواحي حياته وتصرفاته . وقد وصفه الله تعالى بأنه على خلق عظيم ، وجعل فيه الاسوة الحسنة ، كما جعل الانبياء من قبله أمثلة للهداية والاقتداء . ولذلك اتفق المسلمون على عصمة الانبياء من الذنوب مع اختلافهم في كونها بعد البعثة أو قبلها وبعدها ، وفي العصمة من الكبائر والصغائر عمداً أو سهواً وهو الصحيح بدليل الأمر بالاقتداء بهم (فبهداهم اقتده) وكونهم كما وصفهم الله (أئمة يهدون بأمرنا) وقوله في حق محمد ﷺ (ولكم في رسول الله أسوة حسنة) وأمره ايانا باتباعه . وما ورد في القرآن مما يوهم وقوع الذنوب من الانبياء فقد أوله العلماء من السلف وأزالوا إشكاله كقوله تعالى : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) فالذنب بالنسبة الى الرسول ﷺ ينطبق على القليل من الغفلة أو السهو أو مخالفة الاولى مما ليس فيه ارتكاب معصية من المعاصي المنهي عنها فذنوبه ليست كذنوبنا ، على حد قولهم حسنات الابرار سيئات المقربين . واما اجتهادات النبي في تصرفاته مما لم ينزل فيه وحي سابق فلا تسمى

---

(١) ولهذا كانت الصورة التي يعطيها الكتاب الذي يزعم اصحابه انه التوراة ويسمونه ايضاً العهد القديم عن الانبياء صورة مشوهة ومزورة في نظر المسلمين لما فيها من نسبة جرائم الزنى والسكر وغيرها من الفواحش الى الرسل والأنبياء الذين هم مثل عليا للاقتداء ، وهذا من دلائل الوضع والتحريف للتوراة الموجودة في نظر المسلمين .

ذنوباً إذا كانت غير صائبة وفي هذه الحال ينزل الوحي بتصحيحها .

ان تأكيد القرآن صفة البشرية في الانبياء والرسل تكريم للبشر بوجه عام ورفع لهم . وكأن في ذلك اشارة من الله الى أن الجنس البشري قابل للارتقاء في مدارج الرقي والكمال ، فقد صنع الله من طينته الانبياء والرسل ، واختار منه خاتم الرسل ولا يمكن الاقتداء بالانبياء ولا تقام الحجة على البشر في ذلك الا اذا كانوا من جنس البشر ولو كانوا ملائكة لما أمكن الاقتداء بهم ولا الاحتجاج على البشر بسيرتهم لانهم من طبيعة أخرى .

٢ – الصفة الثانية التي يذكرها القرآن بالنسبة للانبياء هي أنهم **يتلقون وحي السماء وأنهم مرسلون من الله** ليبلغوا رسالته الى البشر وليهدوهم طريق الرشاد ويدلوهم على الخير والشر وليخبروهم بما لا تصل اليه عقولهم من الامور الغيبية بسبب اتصالهم بالله وقد اقترن الوصفان معاً **الوصف بالبشرية وبكونهم رسلاً يوحى اليهم** في كثير من آيات القرآن (هل كنت إلا بشراً رسولاً) ، (انما أنا بشر مثلكم يوحى اليّ) .

والنبوة ليست **نبوغاً** عقلياً **ولا عبقرية** شخصية ولا تكتسب اكتساباً ولكنها مرتبة روحية فوق النبوغ والعبقرية ، واصطفاء من الله لبعض أفراد من البشر خصهم الله بصفات من الادراك الروحي لا يصل اليها غيرهم من البشر وبقدرة على تلقي وحيه . **والوحي** اتصال بين الله الخالق القادر العليم والمختارين من خلقه وعباده للنبوة والرسالة لا يشبه اتصال الحواس بالمحسوسات ولا العقل بالمدركات العقلية بل هو نوع من

الادراك يختلف عن ذينك النوعين الحسي والعقلي بطبيعته الخاصة التي لا تدخل تحت نطاق التجربة البشرية وقد عبر عنه القرآن بلفظ الوحي وهي كلمة تفيد في أصل اللغة معنى السرعة والاشارة معاً وتقرب الى الذهن هذا النوع من الاتصال والادراك فتفيد معنى التلقين الخفي عن طريق سريع جداً أشبه بومضات البرق وانتشار الموجات الضوئية .

وقد تجلى هذا الوحي في كلام كان تعبيراً عن هذا الاتصال وهو القرآن الذي تنزل على محمد رسول الله ﷺ وألقي في روعه ونفسه ووعاه قلبه وعقله وحفظته ذاكرته وردده لسانه :

(وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها) (كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم) (إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده) (فأوحى الى عبده ما أوحى) (وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان) ، قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم اني ملك ان أتبع إلا ما يوحى إلي) .

وهذه المرتبة الروحية العالية لا تضاهيها مرتبة من مراتب أصحاب المواهب العلمية أو العملية في تاريخ البشرية كما لا تدانيها مرتبة أصحاب المواهب الروحية من غير الانبياء . ومرتبة محمد ﷺ الذي خصت رسالته بالعموم لجميع الشعوب وجميع العصور في الذروة العليا من مراتب الانبياء ولذلك لا يجوز أن يقارن محمد ﷺ بالزعماء أو الابطال أو القادة او العلماء فهو أسمى بكثير من ان يكون زعيم أمة او قائد شعب فقد كانت الزعامة والقيادة جزءاً صغيراً من تاريخه وشخصيته ولذلك لم

يكن من المستحسن اطلاق ألقاب الزعيم والقائد والبطل والعبقري وأمثالها على محمد ﷺ إلا على سبيل تشبيه الاعلى بالادنى تقريباً وتوضيحاً عدا ما في ذلك من خطر ادخال مفاهيم غريبة عن المفهوم الاسلامي للنبوة والرسالة .

الوحي وماهيته

ان الكيفية التي يتصل بها هؤلاء المصطفون من البشر بالملأ الأعلى وبعالم الغيب وبالذات الالهية لا يمكن ان نعرفها او ندركها الا معرفة اجمالية والا لم تكن ثمة مواهب تختص ببعض الناس . ان الرجل العادي القليل المعرفة والذكاء لا يستطيع ان يدرك كيف يحل الرياضي العبقري المسائل الرياضية المعقدة ولا أن يعرف ذلك الحدس العجيب الذي يدرك به الفيزيائي النابغ حقيقة من الحقائق الدقيقة في العالم المادي ومع ذلك فان الفرق بين هذين الرجلين أقل بكثير من الفرق بين الأنبياء وسائر الناس فكيف يستطيع عامة الناس أن يتصوروا نوعاً من الشعور والمعرفة والكشف لم يتذوقوه ولم يمروا بتجربته مما يفوق قدرتهم وطاقتهم . ان من المستحيل ان يتذوق الجمال الفني من لم يؤت نصيباً من الذوق والخبرة الفنية أو أن يدرك الأفكار الفلسفية المعقدة من كان ابتدائي التفكير ضعيف العقل وكذلك لا تستطيع جمهرة الناس ان تدرك حقيقة العملية الروحية أو أن تعرف حقيقة الاتصال بالقدرة التي هي وراء هذا الكون المادي تسخره وتسيره وتدبره . واذا كنا لم نستطع ان نعرف حقيقة انتقال الأفكار وقراءتها في العصر الحاضر مع ان ذلك أمر واقع مشاهد فكيف يمكن أن نعرف حقيقة تلك الحادثة العظمى التي

هي اتصال شخصية روحية عظيمة بما وراء الكون أو بخالق الكون وعالم الغيب ؟ وشتان ما بين الحادثتين ولذلك كان التعبير العربي القرآني عن هذه الحادثة وهو (**الوحي**) أحسن التعابير وأدقها دلالة عليها . فلفظ الوحي يتضمن معنى السرعة والاشارة فيكون معناه **الاعلام الخفي السريع** وهذا أعلى ما يمكن ان تصل اليه قدرة اللغة في التعبير عن حادثة مجهولة الطبيعة بعيدة عن المألوف بالنسبة الى جمهرة البشر .

ان الموهبة الروحية والكشف الروحي ليست مقصورة على الأنبياء ولكن تبلغ أعلى درجاتها وأكمل أشكالها في الأنبياء ، والأنبياء هم فريق ممتاز من أولئك الذين آتاهم الله هذه الموهبة والقدرة واختارهم واصطفاهم من بين أولئك الذين آتاهم القدرة الروحية لتبليغ رسالته الى البشر .

والوحي ، ليس كما يظن بعض الماديين السطحيين ، من نوع الخواطر النفسية والالهامات الفكرية ، بل هو حادثة روحية من نوع خاص لا نستطيع ادراك كنهها ولكننا نرى آثارها ونتائجها . وجوهرها وأهم عناصرها تلقي النبي معاني وكلاماً بطريقة خفية من قبل القدرة الالهية تلقي وعي وإدراك . وما ورد من الآيات وما روي من وصف الرسول العربي صلوات الله عليه للوحي ، أو وصف الصحابة لمظاهره التي يرونها ، يدل على ما قلناه من ان الوحي حادثة من نوع خاص ، وانه تلق لأفكار ومعان وكلام ، وانه قائم على وعي وادراك عقلي كامل . وهذه بعض الآيات القرآنية الواردة في موضوع الوحي .

(وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً او من وراء حجاب ، أو

يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء انه عليٌّ حكيم . وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدي الى صراط مستقيم .) « الشورى — ٢ »

(إنا أوحينا اليك ، كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلاً قد قصصناهم عليك ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً . رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً) « النساء — ١٦٤ » .

(ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا انه لا إله إلا أنا فاتقون) « النحل — ٢ »

(وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين) « الشعراء — ١٩٢ » .

(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدني علماً) « طه — ١١١ » .

وهذه بعض الاحاديث الواردة في الوحي :

١ — عن عائشة ان الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي قال أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وأحياناً يتمثل لي

الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول . قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقاً . وفي حديث آخر حتى ان راحلته لتبرك به الى الارض اذا كان راكبها .

٢) أخبر زيد بن ثابت ان رسول الله ﷺ أملى عليه لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله فجاءه ابن ام مكتوم وهو يمليها قال يا رسول الله والله لو استطعت الجهاد لجاهدت وكان أعمى فأنزل الله على رسوله وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت ان ترض فخذي ثم سري عنه فأنزل الله غير أولي الضرر .

وقال النبي ﷺ ان روح القدس نفث في روعي انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب .

واذا كان الوحي حادثة لا يستطيع البشر تجربتها بأنفسهم والتحقق من صحتها فكيف السبيل الى معرفة صدق من يدعيه وصدق ما يقوله ويبلغه .

دلائل صدق النبوة

لقد عرف الناس طرقاً غير مباشرة يستطيعون بواسطتها أن يتحققوا من صدق الاخبار والمعلومات التي لا يستطيعون بأنفسهم التحقق من صدقها سواء في الحياة العلمية او العملية وذلك بالتحقق من الشروط التالية :

أولاً : ان يكون الناقل معروفاً بصحة العقل وسلامة التفكير ،

بعيداً عن التوهم والتخيل والتخريف . فهناك حد أدنى من صحة التفكير والنباهة لا بد منه لتصديق كل ناقل الخبر او حادثة .

ثانياً : ان يكون معروفاً بالصدق والامانة في نقل الاخبار والاستقامة وحسن السيرة ولو عارض ذلك مصالحه ومنافعه .

هذه هي **الشروط العقلية والخلقية** التي اذا تحقق وجودها في الناقل أمكن تصديقه فيما يقول بل وجب ذلك .

وبذلك يكون **العقل** هو المرشد الى صحة النبوة كما انه هو الذي يعلن عن تخليه عما هو من اختصاصها دونه .

وهذه هي الطريقة التي يجب تطبيقها في هذا المجال لمعرفة صحة النبوة وتمييز الانبياء من المتنبئين . والواقع ان هذه الشروط متحققة في حياة الانبياء الذين عرفوا في التاريخ . ولو تأملت في حياة خاتم النبيين محمد بن عبدالله صلوات الله عليه لوجدت انه عرف في حياته قبل النبوة بالعقل السديد والتفكير السليم كما عرف باستقامة السيرة وصدق القول والامانة في المعاملة وهذه الشروط اذا أحسن تطبيقها كافية في رأينا لاثبات النبوة وتصديق رسالات الانبياء ومع ذلك فقد كان الى جانبها طريقة أخرى لاثبات نبوة الانبياء وإقامة الحجة على الناس وهي طريقة المعجزة .

المعجزة :

سبق القول أن الوجود عالمان عالم الشهادة أو العالم الحسي وعالم الغيب او ما وراء الحس . فالحوادث التي عرفناها وألفناها داخلة في

نطاق العالم المحسوس فإذا كان لاولئك الموهوبين في الحياة الروحية اتصال حقيقي بعالم الغيب ومعرفة بحوادثه وأسراره ونظامه فان من الممكن ان تجري على أيديهم حوادث العالم غير المحسوس ولا سيما اذا كان اتصالهم بالقدرة المغيبة عنا والكامنة وراء هذا العالم .

هذا من جهة ومن جهة أخرى فان نظام هذا العالم المحسوس هو من خلق خالق الكون ومن نتائج قدرته وإدارته وتدبيره . والذي استطاع أن يوجد هذا العالم ونظامه قادر على أن يوجد عالماً آخر على نظام آخر يختلف في نوع حوادثه وطبيعة قوانينه عن هذا العالم المحسوس المألوف . وليس في العقل ما يوجب أن يكون الكون على ما هو عليه في جريان حوادثه وقوانينه. فاحتراق الفحم والخشب وغيره ، وتبخر الماء بالحرارة ، وانجذاب الجسم الاثقل من الهواء نحو الارض ، ليست واجبة عقلا لذاتها وان كانت تقع هكذا في الحس والمشاهدة . وليس ما يمنع عقلا أن يخلق الكون على حال تكون فيه الحوادث جارية على غير هذه السنن فاذا صح اتصال الموهوبين المتفوقين في الحياة الروحية بالقدرة الخالقة كانت النتيجة امكان حدوث حوادث مخالفة للمألوف من حوادث الكون مما نسميه تجاوزاً أو اصطلاحاً حقائق علمية أو عقلية [١].

زد على ذلك أن الله خالق الكون والعالم بالتالي بقوانينه وأسراره قادر على أن يطلع بعض عباده المختارين على مالم يبلغه علم أبناء عصرهم

---

(١) انظر الفصل الأول الذي كتبه الكسي كاريل في كتابه (الانسان ذلك المجهول) بعنوان (الفعالية الصوفية) وما بعده .

من أسرار هذا الكون ، مما هو من نوع الحوادث الكونية الجارية على سننها الطبيعية ، ولكنها خافية على غيرهم ، وأن يعلمهم الاستفادة من هذه الاسرار والقوانين ، فيعلموا ما لم يعلمه غيرهم ، ويجري على أيديهم ما لا يجري على أيدي غيرهم من الناس .

إن المعجزة وهي الخارقة لنظم الكون الظاهرة وحوادثه المألوفة المتجاوزة لمبلغ علم البشر في عصر أو عصور ممكنة عقلاً وتصلح أن تكون دليلاً على صدق اتصال بعض البشر بالقدرة الخالقة المهيمنة وحجة على الناس لتصديق ما يقولون وينقلون من رسالات السماء الى بني جنسهم من البشر أي دليلاً على النبوة والرسالة .

موقف الاسلام من المعجزة

إن موقف الاسلام من المعجزة لا يختلف عن هذا الموقف السليم من الوجهة العقلية الذي شرحناه آنفاً . فالمعجزة ممكنة عقلياً وهي واقعة فعلاً . وقد نقل القرآن الكريم عدداً من المعجزات منسوبة الى أصحابها من الانبياء وهي حجة على الناس وآية أي علامة على صلة صاحبها بالله .

ولكن القرآن الكريم كان صريحاً في صرف الناس عن طلب المعجزة وردهم الى التأمل والتفكر في موضوع الرسالة وما تضمنته من الهدى .
إن الله الذي أجرى المعجزات على يد الانبياء السابقين قادر على أن يظهرها على يد نبيه العظيم المرسل للعالمين . وقد ثبت فعلاً حدوث عدد من المعجزات على يد محمد رسول الله ﷺ ، كنبع الماء من

بين أصابعه حين وضعها في القربة ، وإشباع العدد الكبير من الطعام القليل ، وإخباره عن بعض حوادث المستقبل ، ورحلته الى بيت المقدس ليلة الإسراء وغيرها .

ولكن القرآن الكريم من جهة أخرى صرف الناس عن طلب المعجزات في مواطن كثيرة كما ورد في سورة الإسراء : (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً . وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً) وورد في سورة الانعام (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم اني ملك ان أتبع الا ما يوحى الي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون) .

وهذه الآيات تدل على اتجاه آخر قضت به حكمة الله لاثبات النبوة التي جاءت بخاتمة الرسالات **وهو الانصراف عن الخوارق المعجزة الى النظر في هداية القرآن والتأمل في آيات الكون** (وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون) « يوسف ١٠٥ » .

وفي سورة العنكبوت : (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل انما الآيات عند الله ، وانما أنا نذير مبين . **أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب** يتلى عليهم ، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)

وهذا الاتجاه ينسجم مع الرسالة التي جاء بها القرآن وتعاليم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ذلك أن هذه الرسالة ، وهي العالمية الخالدة ، فسحت مجالاً كبيراً للعقـــل والتفكير البشري ، وصرفت الناس عن الغيبيات والاشتغال بها والتفكير في تفاصيلها اللهم إلا ما أخـبر بـه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . وما جاء من المعجزات الخارقة على يده لم يكن إلا لاثبات أن نبوته من نوع نبوة الانبياء السابقين : (إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) .

النبوات السابقة وخاتمة النبوات

كانت الجماعات البشرية الأولى تعيش منعزلة بعضهـــا عن بعض في بيئاتها الطبيعية ، وتتآلف مع هذه البيئــات بتجاربها ، وتنمو وترتقي بالتدريج أفكارها . إذ ينمو العقل البشري كذلك بالتدريج خــلال هذه التجارب . وكانت هذه الجماعات تتطور مع الزمن وينتهي بعضها إلى أن يؤلف قوماً أو أمة ويبقى بعضها محدوداً . وفي خلال هـــذه العصور المتطاولة كانت تتكون آراء وعقائد ابتدائية خاطئة ، وعادات منحطة سيئة ، بسبب طفولة العقل البشري . فلم تترك العنــاية الإلهية البشر يترددون في هذه العقــائد والعادات الضارة العائقة عن التقــدم ، كتأليه الشمس أو القمر أو جزء آخر من الطبيعة ، أو فرد من البشر وكتضحية قرابين من البشر لهذه الآلهة المزيفة أو تقــديس بعض الحيوانات ؛ بل قضت حكمة الله أن يرســل في كل جماعة أو أمــة رسولاً يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك الطواغيت ، ويأمرهم بمكارم الأخــلاق ومحاسن العادات ، وينهاهم عن قبيحها . ويكون الوحي الإلهي أو النبوة مصدراً أساسياً إلى جانب العقل لمعرفــة الحقيقة وسلوك طريق الخــير ولا سيما الحقيقة الأساسية الكبرى التي هي عبادة الله الخالق المحررة للإنسان

من الخضوع لجميع الأشياء الأخرى ، وكلها لا تستحق هذا الخضوع والارتباط .

وقد ورد في القرآن الكريم : (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) « فاطر ٢٤ » (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)« النحل ٣٦ » .

ولما تطورت البشرية وارتقى العقل وتجاوز مرحلة الطفولة والتقت الجماعات والأقوام والشعوب احتاجت البشرية إلى رسالة تراعي اعتبارات هذه المرحلة الجديدة ، فتكون في بيانها للحقائق وعرضها للعقائد مراعية ما بلغه العقل من نضج ، وفي قواعد السلوك ومبادىء الأخلاق مراعية هذه الصلات الإنسانية التي نشأت بين الأقوام والجماعات . وهكذا قضت حكمة الله بظهور نبوة من نوع النبوات السابقة من حيث طبيعتها ، ومختلفة عنها من حيث سعة أفقها ومداها ، ومن حيث خصائصها ومستواها المناسب لمرحلة التطور البشري الأخيرة ، وهي نبوة محمد ﷺ التي بها ختمت النبوات ، وبتعاليمها وشريعتها ختمت الشرائع التي جاءت بها النبوات السابقة . ومن هذا البحث الذي عرضناه نستطيع أن نقول أن النبوات السابقة لنبوة محمد ﷺ تتصف بالصفات الآتية :

١ — ان عددها كثير لا يحصى ، والمعروف من هذه النبوات جزء قليل جداً وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم عن الأنبياء : (ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلاً لم نقصصهم عليك) فإذا عرفنا أن جميع الأمم جاءهم رسول من الله ، كما ينص على ذلك القرآن الكريم ،

وأن المذكور منهم أربع وعشرون استنتجنا أن هناك عدداً كبيراً من الأنبياء لا نعرفهم ولم يذكرهم القرآن ، وعلى هذا يجوز أن تكون الديانات الكثيرة المنتشرة في الشرق والغرب هي في الأصل تعاليم أنبياء سابقين ثم حرفت وتطورت إلى ديانات وثنية وهذا هو المرجح .

٢ ـ ان بين النبوات جميعاً أموراً مشتركة وهي التي ترجع الى أصل العقيدة ويطلق على هذه العقيدة المشتركة لفظ (الإسلام) وهو أحد معنيي اللفظ واستعمل في القرآن بهذا المعنى أيضاً ، ومبادىء الأخلاق العامة . كما أن الأنبياء من حيث أصل نبوتهم متساوون من حيث صلة الوحي والاتصال بطريق غيبي روحي بالحقيقة الإلهية . ولذلك وجب عدم التفريق بينهم من ناحية الأصل وطبيعة الرسالة والكرامة التي خصهم الله بها من النبوة (لا نفرق بين أحد من رسله) « البقرة » . (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم) « النساء » وإن كانوا متفاوتين في سعة رسالتهم ومدتها ومقدار عمومها وشمولها (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) « البقرة » . (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) « الاسراء » .

ولذلك كان بين الديانات **قدر مشترك من العقائد والمبادىء** تلتقي عليها وتتعاون ضمن حدودها . وقد فرّق الإسلام في تعاليمه وتشريعاته بين المشركين والملحدين من جهة ، وأهل الكتاب بل من لهم شبهة كتاب من جهة أخرى .

٣ ـ إن النبوات السابقة لنبوة محمد ﷺ كانت رسالتها خاصة بجماعة أو قوم مناسبة لحالهم وموافقة لبيئتهم ومستواهم . ويلاحظ أن

خطاب جميع الأنبيـــاء في القرآن متوجه الى أقوامهم : (لقد أرسلنا **نوحاً إلى قومه** فقال : **يا قوم** اعبدوا الله ... والى عـاد أخاهم هوداً قال : **يا قوم** اعبدوا الله ...) « الأعراف – **٥٩** » وفي سورة الصف : (وإذ **قال عيسى بن مريم : يا بني اسرائيل** إني رسول الله اليكم) ، وفي آل عمران عن المسيح : (**ورسولا الى بني اسرائيل**) وفي الإسراء (وآتينـا موسى الكتاب **هدى لبني اسرائيل**) ، وورد في انجيـل المسيحيين : (لم أرسل إلا الى خراف بني إسرائيل الضالة [(١)]) . ولم يسبق للأنبياء السابقين قبل محمد ﷺ أن ادعوا أن رســالتهم عامة للبشر أو أنهم دعوا فعلاً أمم الأرض كما فعل محمد ﷺ .

٤ – **ان الاعتبارات الخاصة ، الزمنية ، والمحلية ،** غالبة في أحكام هذه النبوات على الاعتبـارات العامة والإنسانية ، فإن أحكامها خاصـة بزمن معين وبجماعة معينة . ولذلك لا يشترط أن تكون أحكامها موافقة للفطرة الانسانية الخالدة ، لأنها جاءت لمدة محدودة وبيئة معينة . فقد تكون علاجاً لحالات شاذة أو متصفة بصفة العقوبة . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله : (وعلى الذين هـادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم . ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون) «الأنعام» . وفي قوله : (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبـات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً) ، ولذلك كانت تصاغ أكثر

---

(١) انجيل متى الاصحاح ١٥ .

الأحكام بصيغة أوامر جازمة دون تعليل خلافاً لتعاليم الرسالة الخاتمة ففي أكثرها تعليل للأحكام وبيان لحكمتها .

خاتمة الرسالات

قضت حكمة الله أن تكون نبوة محمد رسول الله ﷺ في وقت تلاقت فيه الجماعات والشعوب والأقوام ، وتجاوزت كثير منها المرحلة القبلية ، واستقرت بعضها في مجتمعات قومية أخذ يتصل بعضها ببعض بصلات التجارة أو العلم أو الحرب والفتوح ، فاحتاجت الى إقامة أسس انسانية لعلاقاتها ، والى الربط بينها بروابط انسانية ، وأخذ العقل البشري يسير ناهضاً بعد أن كان يحبو على الأرض كالطفل ، وشرع البشر في استثمار الطبيعة استثماراً جدياً ، وكانت رواسب العصبيات الخاصة والنزعات الخرافية كالخوف من الطبيعة والخضوع لها أو لبعض البشر لا تزال مؤثرة في أكثر بقاع الأرض وفي مختلف البيئات والجماعات .

ان الله الذي تولى البشر بعنايته منذ طفولتهم الأولى وحياتهم الأولية وقضى أن ينمو العقل في الانسان ويرقى ، وأمدهم في خلال ذلك بالأنبياء المرشدين والرسل المعلمين ، هو الذي قضت حكمته في أن يستقل البشر وينهضوا بأنفسهم مزودين بما وضع فيهم من أداة العقل وقوة الارادة ، ولكنهم مع ذلك محتاجون الى حقائق الوجود الكبرى التي لا يستطيع العقل ادراكها بنفسه ، والى مبادىء وتوجيهات عامة ومثل عليا يتوجه نحوها في هذه الحياة لهذه المرحلة الأخيرة من حياة البشرية ، منذ تجاوز المراحل الابتدائية . وهذا ما تحقق في الرسالة التي حمّلها الله

محمد بن عبدالله صلوات الله عليه ، وختم بها الرسالات تكريماً للبشر وايذاناً ببلوغهم الرشد ولذلك كان من خصائص هذه النبوة :

١ ـ أنها تقوم على **أسس عامة واعتبارات انسانية** سواء في الحقائق التي تكشفها وتعرضها ، أم في قواعد السلوك وأحكام التشريع . فقد انتهى ذلك الطور الذي كانت فيه النبوات مناسبة لحالة معينة أو بيئة أو جماعة ، وبدأ العهد الذي برزت فيه العناصر الانسانية المشتركة بين البشر على اختلاف أقوامهم وعصورهم . ولذلك جاءت أحكام هذه الرسالة غير خاصة بطور من أطوار البشرية ، بل موافقة للفطرة الانسانية بوجه عام . وقد ورد في الكتاب الكريم في وصف خاتم النبيين ما يشير الى هذا المعنى (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم)« الأعراف ١٥٧ » ولذلك كانت هذه الرسالة خالدة مستمرة ، اشتملت على ما في تعاليم النبوات السابقة من مبادىء جوهرية ثابتة في العقيدة والأخلاق ، ونسخت ما كان فيها من تشريعات موقتة واحكام عارضة .

٢ ـ انها غير خاصة بقوم أو جماعة بل عامة لجميع الأقوام والجماعات على كر العصور محتوية على المبادىء الانسانية التي تربط بين الأقوام والشعوب وان كان نزولها أولاً في قوم مخصوصين . فقد أمر محمد صلى الله عليه وسلم أن يوجه خطابه للناس جميعاً لا الى قومه وحدهم خلافاً للأنبياء السابقين ولذلك تكرر الخطاب **للناس والانسان** وتردد ذكرهما في القرآن كثيراً ابتداء من اول سورة نزلت من ذلك قوله تعالى : (قل يا أيها **الناس** اني رسول الله **اليكم جميعاً** ـ الاعراف ١٥٧) وقوله : (قل يا أيها **الناس** انما أنا لكم نذير مبين)« الحج ٤٩ » وقوله : (وما أرسلناك الا **كافة للناس**

بشيراً ونذيراً) « سبأ ٢٨ » وقوله : (وما أرسلناك إلا رحمة **للعالمين**) « الانبياء » وقوله : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون **للعالمين** نذيراً) وقوله : (وأرسلناك **للناس** رسولاً) « النساء » ووصف القرآن بأنه (بلاغ للناس) و (بيان للناس) و (هدى للناس) وانه (يهدي للتي هي أقوم) وأما الأنبياء السابقون فقد ورد في القرآن خطابهم موجهاً الى أقوامهم وقد أوردنا سابقاً شواهد على ذلك [١] .

ولا ينافي هذا أن يكون المخاطبون في بادىء الامر هم العرب قوم الرسول صلى الله عليه وسلم فأمر أن يبدأ بهم (وأنذر عشيرتك الاقربين) (لتنذر أم القرى ومن حولها) وأن يكونوا هم أداة التبليغ (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) وأن يكون لهم بذلك ذكر ورفعة (وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون)« الزخرف » ولذلك كانت لغتهم التي نزل بها القرآن الكريم وأساليبهم وعاداتهم هي المرجع في فهم القرآن ومعرفة الاسلام لأنها روعيت في الخطاب الذي وجه اليهم بادىء ذي بدء .

٣ — انها أحلت العقل الانساني محله اللائق به بعد أن تجاوز مراحل نموه الأولى وبدأ يسير في مرحلة النضج والارتقاء ، فجاءت طريقة الخطاب وعرض الحقائق والعقائد في هذه الرسالة مناسبة لهذه المرحلة من ارتقاء العقل دافعة الى التأمل والنظر والتفكير في آفاق

---

(١) وقد ورد في الحديث الصحيح : خمس اوتيتهن ولم يؤتهن أحد قبلي – ومنها ان كل نبي ارسل الى قومه وأرسلت الى الابيض والاسود والاحمر .

الكون وآيات الله ، كما جاءت أحكامها كذلك مشيرة الى الاسباب والعلل والنتائج منسجمة مع الفطرة الطبيعية السليمة .

٤ ـ لذلك كان الاسلام في صورته الاخيرة [١] التي أوحى الله بها الى خاتم أنبيائه الرسالة الالهية الخاتمة التي نسخت الديانات الالهية السماوية السابقة وما تضمنته كتبها من تعاليم بالكتاب الخالد الذي تعهد الله بحفظه وهو القرآن الموحى به لخاتم المرسلين .

---

(١) قلنا في صورته الاخيرة لان ديانة الانبياء السابقين سميت كذلك في القرآن اسلاماً لانها جوهرها اسلام الانسان نفسه لله ولكن الاسلام الذي لا يرضى عنه بديلاً من الاديان بنص القرآن هو هذا الاسلام الاخير أي الذي أرسل به محمد صلى الله عليه وسلم مثبتاً بعض ما في الديانات السابقة ومبطلاً بعضها الآخر مستبدلاً به تعاليم نهائية وتوجيهات خالدة بدلاً من التعاليم والاحكام المبنية على اوضاع خاصة بقوم أو زمن ، كما اقتضت الحكمة الالهية .

محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

إن هذه الرسالة التي أراد الله أن تكون حاسمة وفاتحة لعهد جديد في تاريخ البشرية تلتقي فيه الشعوب وتنفتح العقول وتعمل الايدى وتسمو الروح وتنظم المجتمعات، لابد أن يكون النبي المختار لحملها، في سمو روحه وسعة آفاقه، وقوة عقله وروحه في مستوى الرسالة العظيمة الشاملة التي يكلف بتبليغها وذلك ما هيأ الله له محمداً صلى الله عليه وسلم في صحة الفطرة وسلامة الطبع وتفوق المواهب العقلية والروحية وسائر الملكات ونشوء النفس والجسم في جو صاف سليم. زد على ذلك البيئة الجديدة التي هيأها الله فتربى فيها وهي مدرسة القرآن الذى استمرت آياته تتنزل عليه مدة ثلاث وعشرين سنة ونيف فتنطبع في نفسه مفاهيمها وصورها وآثارها. واذا عرفنا أن عظمة هذه الشخصية المختارة من الله تكافىء عظمة الرسالة التي أرسل بها بين رسالات النبوات السابقة في عمومها للبشر وبقائها مدى العصور وتناسبها مع طور ارتقاء العقل والحياة البشرية عرفنا منزلة محمد ﷺ بين الرسل والانبياء.

دلائل نبوته :

لو طبقنا واعتبرنا الضوابط التي كنا أوردناها في بحث النبوة لرأينا في سيرة محمد ﷺ وصفاته كل ما يدعو الى تصديقه واكباره وما يبهر البصر بنور نبوته :

١ — أما الشرط الذي يشترطه العقل ليقبل ادعاء النبوة كما سبق القول فهو سلامة العقل وسداد التفكير ، وقد عرف محمد بن عبدالله صلوات الله عليه منذ أول حياته وقبل النبوة او البعثة بالرصانة وحسن التصرف وسداد الفكر ، وقصة اختياره حكماً في حادثة وضع الحجر الأسود وحكمه الذي أزال الخلاف بين القبائل مشهورة ، كما ان جميع مواقفه خلال سني الدعوة الثلاث والعشرين في السلم والحرب وانتهاءه فيها الى النجاح الباهر اذ عمت الدعوة جزيرة العرب في حياته وابتدأت تنطلق الى خارجها ، ان ذلك كله يجعلنا نحكم حكماً قاطعاً ان مثل هذا الرجل لا يمكن الا أن يكون على غاية من بعد النظر وصحة التفكير وسعة العقل وعمق الادراك .

٢ — وأما الشرط الثاني الذي لا بد منه عقلاً لتصديق من يدعي النبوة أو أي خبر لا يمكن الاستيثاق منه مباشرة فهو اتصاف المدعي بالصدق والاستقامة والأمانة والتنزه عن الغرض الخاص . ولو رحنا نبحث عن هذه الصفات في محمد بن عبدالله صلوات الله عليه بحثاً موضوعياً مجرداً ، وحاولنا ان نتتبع سيرته لنستخرج صفاته بل لو فعل ذلك باحث لا يمت بصلة الى الاسلام لخرج من بحثه بأن هذه الصفات تبلغ فيه غايتها ، وان أعداءه في حياته كانوا يعترفون له بهذه الصفات وانه كان

في ذلك المثل الأعلى الذي عرف به الأنبياء وأعاظم القديسين والأولياء عند سائر الأمم .

٣ — ويمكن أن تزيد العقل وثوقاً بالحكم بنبوته زيادة على الشرطين السابقين — وهما الشرطان الضروريان لتصديق كل خبر لا يستطيع العقل الوصول اليه مباشرة — بإيراد صفة ثالثة تقوي القناعة وتزيد في الاطمئنان وهي تجرده ﷺ عن المصلحة الخاصة وتنزهه عنها . فقد عرض عليه العرب ان يجعلوه ملكاً عليهم منذ البداية فأبى ، وعرضوا عليه المال الكثير وأتيح له بعد انتصاره كذلك أن يكون غنياً كبيراً وملكاً عظيماً فلم يفعل وخرج من الدنيا وليس عنده من المال شيء وكان في حياته وبين المؤمنين به كواحد منهم لا يتميز عليهم بشيء فلم يكن ادعاء النبوة اذن مرتبطاً بمنفعة تعود عليه او شهوة شخصية يحققها من شهوات الدنيا .

وعلى القارىء الذي يحب التوسع في معرفة هذه الجوانب الثلاثة من حياة النبي العربي صلوات الله عليه وشخصيته الا أن يعود الى تفصيل ذلك في كتب السيرة التي لا يختلف في جوهرها الباحثون من مسلمين وغير مسلمين والتي ينظر اليها المؤرخون على انها تاريخ تصدقه الوثائق والأدلة وليست مجرد أقاصيص وحكايات يتناقلها المؤمنون بها فحسب .

ونضيف الى ما تقدم من ضوابط صدق النبوة وأدلتها الملاحظات التالية :

١ — ان القرآن الكريم يذكر محمداً عليه صلوات الله في صيغة

المخاطب او الغائب (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك – اقرأ باسم ربك الذي خلق – يا أيها المزمل – قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً – محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم – تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) وكثيراً ما يأتي الخطاب ارشاداً له وتعليماً وتثبيتاً لعزيمته (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) « سورة الكهف » ، (فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً) « سورة الانسان » . وقد يكون الخطاب عتاباً كمعاتبته في شأن الأعمى في هذه الآيات : (عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى ...) . وقد يكون انذاراً له وتهديداً كما في هذه الآيات الكريمة (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) « الزمر » ، (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) « الحاقة » . ومن هذه الآيات ما يصف ما كان يعتريه عليه السلام من هم او حزن او ضيق (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) ، (ولا تحزن عليهم ولا تكُ في ضيق مما يمكرون) . بل قد تصف ما هو أشد من ذلك وأخطر في هذه الآيات الواردة في سورة الاسراء : (وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك لتفتري علينا غيره وإذن لاتخذوك خليلاً . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً . اذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً) .

واذا كان الخطاب في القرآن موجهاً الى محمد عليه الصلاة والسلام في

شتى أحوال الأمر والتأديب والتعلـيم والمعاتبة والتهديد ، واذا كانت شخصيته الكريمة موصوفة على واقعها في حال الحزن والغم والضيق او الوقوع تحت تأثير ضغط المشركين ، فهل يكون من المعقول ان يكون هذا الكلام صادراً عنه ؟ وهل يعقل أن يجعل نفسه في موقف المعاتب او المنذر المهـدّد ، أو أن يكشف في نفسه عن بعض الأحـوال التي تعتري سائر البشر ؟ قد يقول المكابرون انه قـد يفعل ذلك للتغطية والابهام فهل عرف عنه في حياته مخادعة او تزوير او انحراف عن جادة الصدق والصراحة ؟ لا مجال اذن الا لقول واحد هو ان هـذا الكلام صادر عن قوة فوق قوتـه ، هي قوة الله الذي خلقـه وخلـق البشر والكون جميعاً وليس هو الا رسولاً مبلّغاً يبلغ ما يوحي اليه ربه .

٣ ـ ثبت في تاريخ السيرة ان الوحي انقطع عن الرسول ﷺ أحياناً انقطاعاً طال أمده ، ثم نزلت سورة الضحى وفيها (ما ودّعك ربك وما قلـى) كما ثبت انه كان يُسأل ويُستفتى فينتظر نزول الوحي من الله ليجيب السائل ، وقد يطول هذا الانتظار ، ولو كان القرآن من صنعه لما حدث هذا الانقطاع وذلك الانتظار .

٤ ـ ان بـين أسلوب القرآن الكـريم وأسلوب الرسول ﷺ فروقاً كبيرة جداً من حيث الفن الأدبي والروعة والأسلوب وتركيب الكلام ومفرداته ولا مجال هنا للافاضة في هذا البحث .

٥ ـ ان القـرآن الكـريم لا يصور البيئـة التي نشأ فيهـا محمـد ﷺ وهي بيئـة الابـل والصحراء وانمـا يصور الطبيعـة بوجـه عام . فمشاهد البحار والانهار والجنان الخضر الملتفة أظهـر وأوضح

في القرآن من مشاهد مكة والبادية المحيطة بها بكثبانها وإبلها وصحرائها .

٦ — ان ما في القرآن من أفكار سبقت العصور ، من **نظرات شاملة للوجود** ، ومن **مفاهيم انسانية** عامة ، ومن إحاطته بآفاق الحياة الفردية والاجتماعية في مستوى يفوق كثيراً ما كان عليه العرب وغيرهم من الأمم في ذلك العصر ، ومما لا يمكن تصور ظهوره كذلك عن رجل واحد ، دليل على ان القرآن وحي من الله ، وليس من صنع بشر . وهذا يدل على نبوة محمد ﷺ ولا سيما اذا لاحظنا الفرق الكبير بين حال النبي ﷺ قبل البعثة وخلو ذهنه من هذه الافكار والقصص والشرائع التي تضمنها القرآن . ولم يعرف عنه قبل البعثة انه كان يقرأ الكتب او يطالعها ، بل الثابت المعروف انه كان أمياً لا يحسن القراءة والكتابة .

ولذلك كان **القران** ، بأسلوبه المعجز الذي تحدى العرب البلغاء ، وبالهداية التي رسم طريقها للبشر على اختلاف مستوياتهم في جميع العصور وآفاق الحياة ، هو **المعجزة الكبرى والدليل الاقوى** على نبوة الرسول الكريم صلوات الله عليه . وهذا ما أشارت اليه آيات كثيرة من الكتاب الكريم كقوله : (وما منع الناس ان يؤمنوا اذ **جاءهم الهدى** الا ان قالوا أبعث الله بشراً رسولاً) وقوله : (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين . **أو لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب** يتلى عليهم ، ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) « العنكبوت » وفي الحديث الصحيح : (ما من نبي من الانبياء الا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر **وانما كان الذي أوتيته**

وحيا أوحاه الله تعالى اليّ فأرجو ان أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)
« رواه الشيخان » .

الخلاصة :

من كل ما تقدم نستطيع ان نقول ان سيرة محمد عليه صلوات الله المثالية ، وأخلاقه التي كانت مضرب المثل ، وتفوقه في المدارك العقلية والمواهب الروحية ، وما جاء به القرآن المعجز بأفكاره وأسلوبه ، وما تركه من أثر عميق واسع خلال القرون ... في كثير من أمم الارض ، وما تضمنته تعاليم رسالته من أفكار عالية ومفاهيم انسانية وتشريعات راقية ، هذه الامور كلها تدل دلالة قاطعة على صدق نبوته وحقيقة اتصاله بالملأ الاعلى والحقيقة الالهية .

منزلة الانبياء في تاريخ البشرية :

ان الفعالية الروحية في الانسان هي أرقى فعالياته وأعلاها وأقواها أثراً في الحياة اذا بلغت غاية نموها واكتمالها ، وان ما وراء المادة والعالم المحسوس من قدرة الله المطلقة وما انبثق عنها من عوالم هي أوسع نطاقاً وأعلى مرتبة في الوجود والبقاء من هذا العالم المحسوس . والانبياء هم الرواد المكتشفون لهذا العالم الآخر الواسع الآفاق ، الكاشفون لحقائق الوجود الكبرى ، الواصلون بين البشر والحقيقة الالهية ، الكاشفون عن الفعاليات الروحية في البشر ، الباعثون للوعي الروحي او وعي الوجود المطلق في نفوسهم ، المربون لهذه الفعاليات ، الراسمون طريق

الهداية لها . لذلك كان **هؤلاء الانبياء أعلى نوعاً وأرقى من حيث طبيعة مهمتهم من جميع أنواع العلماء والنابغين والمكتشفين والمفكرين ورجال الفن والقانون وقادة السياسة والمصلحين** ، وكان المترسمون خطاهم كذلك من دعاة الحياة الروحية وباعثي الوعي الانساني الروحي أرقى وأعلى من أمثالهم من العاملين في ميادين العلم والفن والاقتصاد والسياسة . **ان الانبياء هم الكاشفون والمربون لاخص خصائص الانسانية في الانسان يبعثونها في نفسه ويرتفعون به الى مرتبة الانسانية الحقيقية ويفسحون له مجال الارتقاء في معارج النفس ومراقي الروح** . وكل ارتقاء آخر انما هو تبع لهذا النوع من الارتقاء لذلك كانوا **أعظم دعاة الاصلاح البشري وأرفعهم مرتبة فهم مبلغو الامانة العظمى** التي هي رسالة الحياة بل رسالة الله الى الانسان . انهم في مرتبة لا تدانيها ولا تقاربها مرتبة كاشفي المادة ومربي العقل ومصلحي الملك ومدبري السياسة ومنظمي الاقتصاد ومبدعي الفن .

ان عباقرة الفكر والعلم والفن والسياسة والاقتصاد يعالجون من الانسان نواحي مادية او محدودة او صفات جزئية مبتذلة بالنسبة الى صفته الاصلية الثابتة السامية التي هي انسانيته وروحيته ووعيه لمكانته من الوجود . لذلك كان مصلحو الروح ودعاة الانسانية الحقيقية من الانبياء الذين اصطفاهم الله واختار منهم رسلاً ومن كانوا على أثرهم من المصلحين ممن كان هدفهم الارتفاع بالانسان من الحيوانية الى الانسانية فالربانية أرفع أنواع المصلحين ولا يجوز ان يقرن هؤلاء بأولئك فهم نوع خاص ممتاز من معلمي البشر وهداتها ومصلحيها .

منزلة خاتم النبيين :

ان الانبياء الذين هم رسل الله الى البشر قد أدوا الامانة وبلغوا الرسالة ، كل في المحيط او الجماعة التي كلف ان يبلغها . ولكن **نبوة واحدة أرادها الله ان تكون عامة للبشر باقية على الزمن متضمنة للعناصر المشتركة بين البشر الخالدة** غير المتبدلة وأرادها ان تكمل طريق النبوات السابقة لتصل بالبشر الى قمة الكمال وذروة الارتقاء . وكان النبي العربي محمد بن عبدالله صلوات الله عليه هو الذي خصه الله بحمل هذه الرسالة ، وأحله هذا المكان الذي لم يحله احداً غيره من الانبياء المرسلين ، فكانت منزلته بين الانبياء كمنزلة رسالته بين الرسالات .

والى هذا يشير الرسول ﷺ في قوله : (اذا كان يوم القيامة كنت انا إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر) « الترمذي » وفي حديث آخر (... وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر) .

ويلاحظ هنا ان محمداً ﷺ هو الوحيد بين الانبياء الذي حفظ التاريخ العلمي سيرة حياته مفصلة منذ ولادته حتى انتقاله وليست كذلك شخصيات الانبياء الآخرين ، فقد كانت حياتهم محاطة بالغموض وحيكت حولها الاساطير حتى أصبح من الصعب معرفة حقيقتها .

اننا أعجز من ان نستطيع ان نقدر او نعرف المنزلة الحقيقية او المقام الذي يحتله خاتم المرسلين ، والخصائص التي خصه الله بها ، والمرتبة

التي بلغها بعناية ربه ، ولا نستطيع أكثر من أن نتصور عظم منزلته وعلو مرتبته تصوراً اجمالياً .

ان **شخصية رسول الله** ﷺ شخصية فذة لا ترتقي الى ذروتها أي شخصية في السابقين او اللاحقين ، كانت وستبقى في قمة الكمال البشري والنموذج المثالي الكامل ، وفي منزلة من القرب من الله لا تدانيها منزلة أحد على الاطلاق .

هذا وان **الاثر الذي تركته رسالة النبي** العربي الكريم عليه صلوات الله في حياة البشر وتاريخ الحضارة لا يعدله أثر أي رسالة إلهية أو أو مذهب فلسفي او اجتماعي ، فقد فتح للعقل آفاقه ، وفسح أمامه مجال النظر في الكون والتفكير في نواحيه ، وأقام الاخلاق على أساس الشعور العميق بالمسؤولية أمام الله في يوم آخر ، وبث في الناس مفاهيم إنسانية سامية للحياة الاخلاقية ، وأقام للحياة الاجتماعية أسساً صحيحة تدع للتطور السليم مجالاً رحباً بعد ان تحدد له اتجاهاته .

لقد ظهرت في تاريخ الحضارة الاسلامية بل البشرية آثار هذه الرسالة ولا يزال فضلها باقياً مستمراً في حياة البشر عموماً .

ان فضل هذا التوجيه للحضارة بهذا المدى الواسع والاثر العميق ، اذا أضفنا اليه **الاهداف المثالية** التي رسمتها تعاليم هذه النبوة المحمدية للبشر ، والتي لا تزال وستبقى صالحة لان تكون أهدافها المثالية ، تجعل هذه الرسالة او النبوة في مكان لا ترقى اليه رسالة سماوية او دنيوية ، وتجعل صاحب هذه الرسالة بفضله على البشرية ، وأثره في

توجيهها نحو المثل الاعلى ، ممـــا تم سابقاً ويمكن ان يتم الآن وفي مستقبل الانسانية ، في منزلة من العظمة والفضل لا يبلغها أحد من قبله او من بعده .

صلة المؤمنين بمحمد رسول الله ﷺ :

ان ما قدمناه من الكلام يدلنا دلالة قاطعة على أن محمداً ﷺ رسول الله ولذلك أصبح الاعتقاد بذلك واجباً علينا ووجب تصديقه فيما يقول لأن الله لا يتخذ أحداً رسولاً الا ان يتصف بالصدق والأمانة فيما ينقل عنه وقد وصفه القرآن أنه خاتم النبيين وجعل رسالته عامة كما قال هو عن نفسه في حـــديث صحيح أنه بعث الى الأحمر والأسود أي الى الناس كافة وان كل نبي بعث لأمته خاصة « من حديث أخرجه الشيخان والنسائي » .

ولكن لا يكفي أن تكون صلة المؤمنين به مجرد صلة اعتقاد عقلي بأنه نبي مرسل ، فإذا أردت أن تكون هذه الصلة مثمرة في الارتقـاء بنفسك وتنمية ما فيها من القوى الروحية وبواعث الخير وجب أن تكون صلتك به **صلة اقتداء** وطاعة ، فإن الاقتداء بهذه الشخصية العظمى وتقصي سيرته وأفعاله وفضائله يرتفع بك عن المستوى الذي أنت فيه مهما كنت في مستوى تعتقده عالياً (لقـد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) . وطالما ردد القرآن الكريم الدعوة إلى **اطاعته** وقرن الله طاعته بطاعته (أطيعوا الله والرسول) في آيات كثيرة جداً .

إن الصلة بالرسول الأعظم ﷺ يجب أن تكون صلة قلبية ، **صلة حب** للشخصية التي جعل الله لها الفضل الاكبر على الناس في إخراجهم من الظلمات الى النور والتي أحلها منه المحل الاول ولا تكون الطاعة والاقتداء مجديين مفيدين الافادة الكاملة الا اذا اقترنا بحبه الحب الذي لا يعوقه حب حتى حب الانسان لنفسه .

والى هذا أشار رسول الله ﷺ في قوله (والذي نفس محمد بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه وما له وولده والناس أجمعين) وفي قوله في الحديث الآخر اذ قال عمر : يارسول الله والله لانت حب إليّ من كل شيء الا من نفسي . فقال رسول الله ﷺ (لا يا عمر حتى أكون أحب اليك من نفسك) فقال عمر والله لأنت أحب الي من كل شيء حتى من نفسي فقال : (الآن يا عمر)

وفي القرآن الكريم في سورة الاحزاب (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) وفي آية أخرى من السورة نفسها (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً) .

وفي القرآن آيات كثيرة في **الادب** مع الرسول ﷺ منهـا في سورة الحجرات (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ... الخ) وفي النور (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) وفي الأحزاب آداب أخرى « ٥٣ — ٥٦ » ، وذلك لأن **حب شخصيته** حب لما فيه من الأخلاق الكاملة ولما

هو عليه من القرب من الله والصلة به . ومن أجل هذا أمر الله المؤمنين أن يصلوا عليه وأخبرهم انه هو وملائكته يصلون عليه .

والصلاة من الله على العبد الثناء عليه ومن الملائكة الاستغفار **والصلاة على الرسول هو تمجيده والثناء عليه** وطلب الرفعة له [(١)] وطلب الصلاة على الرسول وارد في الصلاة وفي غير الصلاة وذلك تذكير به وبكماله واستحضار لمعاني الكمال والقرب الالهي . وفي ذلك فائدة للمصلي نفسه في الحقيقة اذ تجعله كثرة الذكرى هذه يعيش في هذا الجو العلوي العطر ، فتزكو نفسه ويتطهر قلبه وتتفتح فيه معاني الخير وينابيع الحكمة .

الايمان بالنبوة ونتائجه

لقد كان اولئك البشر المثاليون في سيرتهم وسلوكهم الذين ظهروا في عصور البشرية المختلفة وفي شتى البقاع والشعوب يلحون على أمر هام له نتائجه الخطيرة وهو انهم رسل الله الى البشر فاذا قنع العقل بمقاييسه وأدلته التي سبق الكلام عنها بنبوة أحدهم واتصاله بمصدر الوجود وخالقه ومصدر حقائق الوجود كان النتيجة الطبيعية لذلك ان أخباره أوثق من استنتاجات العقل نفسه ولو ان العقل هو الذي أرشد اليه ودل عليه ، شأنه في ذلك شأن من يدلك عن تجربة على طبيب اختصاصي عظيم فلا

(١) راجع في تفسير ابن كثير في سورة الاحزاب بحثا مطولا في معنى الصلاة من الله والملائكة والناس وفي حكم الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى الانبياء

مجال للعقل - اذا تحقق من كلام النبي الموحى بــه ومن حسن فهمه - لمناقشته ولا حاجة الى برهان جديد عليه ولاسيما اذا كان من الأمور الغيبية التي لا مجال للعقل لإدراكها والوصول اليها كما لا مجال لمن دلك على الطبيب العظيم لأنه جربه ان يناقش ما وصفه لك هذا الطبيب من علاج وما أخبرك به من أحوالك المرضية وينتج عن ذلك :

اولاً - الايمان بما يخبر به النبي من غيبيات أي من موجـودات أو حوادث مغيبة عنا لبعدها في الزمان وحصولها في المستقبل كاحـداث القيامة والحياة الآخرة أو لخفائها عن ادراكنـــا كالملائكة والجن وانمـا يأتي البحث العقلي بعد الايمان بها لا قبله لأن الايمان بها استند الى قناعة العقل بالنبوة أي بطريق الاخبار الالهي لمن اصطفاهم الله رسلاً للتبليـغ .

ثانياً - وجوب تنفيذ ما يأمر به النبي من أوامر وتطبيق ما يشرعـه للناس من شريعة مصدرها الوحي الالهي ذلك ان الله خالق الانسان أعلم بما هو الأفضل والأمثل من الخطط في حياة الانسان فـاذا ثبتت نبوة النبي وثبت الكلام الذي يبلغه وحيا عن الله وفهم هـذا الكلام على وجهه المقصود، لم يعد ثمة مجال لوقوف العقل موقف الاختبار والتقويم والتخطئة والتصويب وانما يستطيع أن يقف موقف المتأمل لاستنتـاج الحكمة وقد يخطىء العقل في ذلك وقد يصيب، او موقف البـاحث عن مدلول الكلام ووجهه المقصود وغايته وهدفه .

فلا مجال لمناقشة فروع التكاليف الشرعية بعد الايمان بالنبوة وانمـا

عمل العقل في استخراج مقاصد الشارع وحكمة الاحكام والمبادىء العامة الناظمة لها .

وأما مناقشة هذه الموضوعات مع غير المؤمنين فينبغي أن يسبقهـــا البحث في النبوة واثباتها فذلك هو المنطلق الاول الذي لا بد من الاتفاق عليه اولاً لامكان الاتفاق فيما بعده .

* * *

الغيبيات

ان الاصول الاساسية للعقيدة الاسلامية هي الايمان بالله والحياة الآخرة ثم الاعتقاد بالنبوة لكونها طريقاً الى معرفة الحقائق الغيبية والصلة بين الله وعباده .

وقد ورد عن طريق النبوة أمور غيبية أخرى لا بد من الايمان بها بعد أن ثبتت عندنا النبوة وثبت أنها طريق المعرفة الحقيقية للغيبيات مع وجوب الاعتقاد بأنها ليست في منزلة قواعد العقيدة الاساسية التي هي الايمان بالله ورسله واليوم الآخر ولاسيما من جهة أثرها في النفس والاخلاق ولذلك نرى أن تفصل عنها حين تعليم العقيدة الاسلامية .

ونستطيع أن نقول ان الاعتقاد بهذه الغيبيات كالملائكة والجن لا ينافي العقل وان كان العقل في ذاته لا يدل عليها ويثبتها ، ولكن لما ثبتت عندنا النبوة وصدق ما يأتي عن طريقها وأنها هي طريق معرفة عالم الغيب فقد أصبح لزاماً علينا الاعتقاد بكل ما يأتي عن طريقها من الغيبيات ومنها :

الملائكة :

لقد سبق الاسلام اعتقاد شائع في بعض البيئات، والجماعات بأن الملائكة آلهة تعبد أو أنهم بنات الله ، فجاء الاسلام ناقضاً هذه العقيدة مكافحاً لها معيداً الأمور الى نصابها مبيناً أن الملائكة ليسوا الا نوعاً من المخلوقات التي خلقها الله فهم كغيرهم عباد له خاضعون لأمره .

قال تعالى في سورة آل عمران : (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً) وفي سورة الأنبياء (وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) وفي سورة الزخرف : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثاً أشهدوا خلقهم) ، ويتلخص رأي الاسلام في الملائكة كما يتجلى في القرآن الكريم بما يأتي :

١ — ان الملائكة من مخلوقات الله وعباده الخاضعين لأمره وقد كرمهم الله بهذه الطاعة ووصفهم القرآن بأنهم (عباد مكرمون) .

وقد أمروا بالسجود لآدم أبي البشر تكريماً له وإيذاناً بأنهم عباد مأمورون . قال تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) « البقرة » . وورد مثله في سورة طه والإسراء والحجر وص، فلم يؤمر البشر بالخضوع للملائكة ولم يجعل الله لهم سلطاناً خاصاً عليهم ، وإنما أوجب تعظيمهم لما وصفهم به من كرامة طاعته والخضوع لأمره ، ولما عهد اليهم به من الأعمال الرفيعة .

٢ – ان وظائف الملائكة التي كلفهم الله بها من نوع الأعمال المتصلة بالغيبيات كتبليغ الرسل إرادة الله ورسالاته (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) ، (والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس) ، (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً) ، وقد قضت حكمة الله في أن لا يتصلوا بعامة البشر ويلابسوا حياتهم لذلك لم يتخذ منهم رسلاً الى الناس : (قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً)« الإسراء » (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) « الأنبياء » (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) « التحريم » (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) « النحل » وكذلك سائر الأعمال التي يكلفون بها هي من نوع الأعمال المتصلة بعالم الغيبيات لا بعالم الشهادة كتوفي الارواح وفتح أبواب الجنة والنار وما الى ذلك مما ورد في القرآن أو عن طريق النبوة ولزمنا التصديق به .

٣ – لم يذكر القرآن صلة للملائكة بالعالم المحسوس وحياة البشر الظاهرة وإنما صلتهم بهم من ناحية الأمور الغيبية غير الحسية كتسجيل أعمالهم وتوفي أرواحهم (ان كل نفس لما عليها حافظ) ، (اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد) ، (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) ، (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ...) ، (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم) . وأما ما ورد في تفسير الذاريات والمرسلات بالملائكة

فهو قول من أقوال عديدة وليس بمتفق عليه [1] وأما نصر المؤمنين بإنزال الملائكة فهو من قبيل المعجزة التي لا تقع الا شذوذاً بإذن من الله ومن قبيل التثبيت وتقوية المعنويات (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) « الانفال ۹ وكذلك الآية ۱۲» وفي « آل عمران ١٢٤ ».

الشيطان أو إبليس :

من العقائد القديمة تأليه الشيطان وعبادته ، وقد جاء الإسلام بنقض هذه العقيدة ومحاربتها لما فيها من الضرر على الفكر والحياة البشرية بالخضوع لمن هو رمز الشر واعتقاد سلطانه على البشر وتقديم الضحايا له لذلك قرر الإسلام :

١ ـ ان الشيطان مخلوق كسائر المخلوقات (خلقتني من نار وخلقته من طين) « ص والاعراف » ولا سلطان له على البشر (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) « الحجر ٤٢ » ومثل ذلك في الإسراء ٦٥ .

٢ ـ وهو عاص متمرد كافر لنعمة الله ملعون مطرود من رحمته مصيره الى جهنم ، كما بين القرآن ذلك في مواطن عديدة بمناسبة خلق آدم وامتناعه عن السجود له كما أمره الله على عكس الملائكة الذين هم عباد مكرمون (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٣١ و ٤٥٨ - ٤٥٩ .

٣ – وكل ما يستطيع أن يفعله الشيطان أن يوسوس ويوحي بالشر (من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس) ، (وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم)« الانعام ١٢١ » ومثل هذه الوسوسة والإيحاء قد يفعلها البشر أنفسهم بعضهم مع بعض وليس فيها ما يدل على سلطة خارقة (وكذلك جعلنا لكل نبي شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً) « الانعام ١١٢ » وعلى البشر أن يعرضوا عن وسوسته ويتخذوه عدواً ولا يطيعوه (ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين) «يس ٦٠ » (ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) « البقرة ١٦٨ » .

وصراعه مع الانسان قديم يبدأ من غوايته لآدم وحواء (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة) ، وليس هذا الصراع الا واحداً من أنواع عديدة من الصراع بين المخلوقات التي خلقها الله .

الجن :

كان بعض الاقدمين يعبدون الجن ويجعلونهم شركاء لله ، ويتصل بهذه العقيدة عادات غريبة وعبادات وقرابين أبطلها الإسلام كلها ، قال تعالى مشيراً الى ذلك : (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) « الانعام » ، (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً)

«الصافات » ، وليس العقل بمانع من وجود مخلوقات خفية لا تدرك بظاهر الحواس وأن تكون هذه المخلوقات واعية عاقلة ، فإذا جاءنا الخبر بوجودهم عن طريق النبوة لزمنا تصديق ذلك ، وقد أخبر القرآن بوضوح وصراحة لا تقبل التأويل ان من مخلوقات الله نوعاً خفياً علينا لا تدركه حواسنا وهي مخلوقات تعي وتعقل وتسمع قرنت بالانس من ناحية العقل والوعي (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) ، (قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار) «الاعراف » (من الجنة والناس) ، (قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي الى الرشد فآمنا به ... حتى الآية ١٧) « الجن » ولا مجال بعد هذه الآيات وغيرها مما ذكر فيه الجن لتأويل الجن بغير هذا المعنى الصريح الذي يفيد أنهم نوع من المخلوقات الواعية العاقلة ، وان كانت من طبيعة غير طبيعة البشر (وخلق الجان من مارج من نار) .

خلاصة ونتيجة :

كان الناس قبل الاسلام يعبدون الأرواح والجن والشياطين والملائكة ويجعلونها أنواعاً من آلهة الخير والشر ، فجاء الاسلام معلناً ان هذه الأرواح الخيرة منها والشريرة ليست الا أنواعاً من المخلوقات كالانسان وان اختلفت عنه في طبائعها وخصائصها ولا سلطة لها على الانسان وتصرفاته ولا على الكون السائر بنظام مقدّر ، وبذلك حرر الاسلام العقل البشري من أساطير اليونان والعرب وغيرهم ، تلك الأساطير التي كان لها تأثير سيء في حياة البشر الفكرية والعملية وكانت تستلزم

أنواعاً من التضحيات الضائعة من نذور وقرابين لاسترضاء الأرواح الخيرة واستجلاب نفعها ، ودفع الشريرة وكف أذاها ، كما كانت تغل يد الانسان عن استثمار الطبيعة والاستفادة من خيراتها اعتقاداً منه أن بعض تلك الخيرات مخصص للجن أو الشياطين أو الارواح وأنه ليس له أن يأخذ شيئاً منها والا نالته تلك الارواح بالاذى .

ومع ذلك فإن الاسلام لم ينف وجود هذه المخلوقات الخفية ، بل أقر وجودها ، ولكنه حصر عملها ودائرة نشاطها خارج نطاق النظام الحسي والحياة الانسانية الظاهرة ورفع تأثيرها الضار في تفكير الانسان وحياته العملية ، ورفع من قيمة الانسان وقدرته في نظر نفسه وجعله من حيث أصله مكرماً أمرت الملائكة ، وهي أفضل تلك المخلوقات الخفية ، أن تسجد له .

المسؤولية العظمى والحياة الآخرة

ان من أبرز ما يتصف به الانسان – كما أسلفنا في بحث سابق – هو أنه ذو **إرادة ومكلف ومسؤول** . فمسؤولية الانسان سمة من سماته ونتيجة من نتائج منزلة الكرامة التي احتلها من بين المخلوقات .

ولكن هذه المسؤولية – **في نظر الاسلام وكما هو صريح في القرآن** – مزدوجة او مضاعفة فهو **مسؤول** بالنسبة الى هذه الحياة التي يعيشها في هذا الكون ، وعلى هذه الارض أمام أهله وفي مجتمعه . وقد نظّم الاسلام هذا النوع من المسؤولية الدنيوية تنظيماً مفصلاً فألزمه بتكاليف بالنسبة الى نفسه وأسرته والى من يعاملهم في المجتمع وباعتباره حاكماً او راعياً او رعية او مواطناً ، ورتب على إخلاله بهذه التكاليف أنواعاً من التبعة والجزاء من عقوبات أو ضمانات مدنية [١] . وليس

---

(١) يدخل في هذا النوع من المسؤولية جميع أحكام العقوبات الاسلامية من حدود وتعزير وجميع أحكام الضمان المدني في المعاملات وأحكام النفقة في نظام الأسرة وأحكام كثيرة غيرها اشتمل عليها التشريع الاسلامي .

الموضع هنا موضع تفصيل الكلام في هذه المسؤولية التي تشمل جميع النظام الاجتماعي في الاسلام مما سيأتي في موضعه من نظام الاسلام .

والانسان **مسؤول** بعد تلك المسؤولية **مسؤولية نهائية** أمام خالقه وخالق الكون كله في حياة اخرى وراء هذه الحياة الدنيوية والارضية. وهي متممة ومكملة لتلك المسؤولية الاولى وهذه هي **المسؤولية الاخروية** العظمى .

وهكذا جمع الإسلام في نظامه بين هذين النوعين من المسؤولية : فلم يترك المقصرين والظالمين والمجرمين في هذه الحياة دون عقوبة مناسبة لتقصيرهم أو ظلمهم أو إجرامهم . ولو فعل ذلك لطغوا واستشرى الفساد في الأرض . ولم يقل للمظلومين والمعتدى عليهم انتظروا رد مظالمكم وإزالة الاعتداء عليكم إلى ما بعد هذه الحياة فإن ذلك يحدث في نفوسهم يأساً مميتاً أو حقداً يتربص حتى يرد الظلم بمثله بل باضعافه ، والاجرام باجرام أكبر في ثأر انتقامي بالنسبة للفرد أو ثورة انتقامية بالنسبة للجماعة تتسلسل ولا تنتهي .

إن الإسلام اعطى الحق للمظلوم بأن يرد الظلم ويستعيد الحق سواء أكان عن طريق ولي الأمر (الدولة) أو مباشرة بنفسه بحسب الأحوال المفصلة في نظام الاسلام كما انه بين الأحوال التي يفضل فيها العفو واسقاط الحق والأحوال التي لا يجوز فيها إلا معاقبة المجرم وإقامة الحد عليه ورد الظالم ووقفه عند حده وذلك في مثل الحالات التي أشارت اليها الآية الكريمة (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) أو الحديث النبوي (اذا رأى الناس الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن

يعمهم الله بعقاب) .

ولكن الإسلام لم يقف في تحديد المسؤولية ونتائجها عند هذه الحدود بل تجاوزها الى **نوع اخر من المسؤولية** هو أبعد مدى وأدق حكماً وأعمق أثراً في النفس الإنسانية ذلك أنها : **مسؤولية نهائية** تتعلق بمصير الانسان النهائي وإن الذي يحكم بها ليس هو المجتمع وهيئاته وأجهزته وإنما هو خالق الإنسان نفسه ، خالق الكون ونظامه ، خالق الحياة في جميع أشكالها وأطوارها .

إن المذاهب الأخرى دينية كانت أم وضعية وما أقيم عليها من أنظمة وحضارات ، عنيت بنوع واحد من المسؤولية . فبعضها اهتم بالمسؤولية الاخروية وحدها وأهمل تنظيم المسؤولية الدنيوية فعني بالحض على العفو والتسامح ولم يعن بقمع المجرمين ولا رد الظالمين وبعضها اهتم بتنظيم المسؤولية في الحياة الدنيوية وأمام المجتمع مهما تكن نتائجها عادلة أو جائرة وسواء علمت ونفذت أم خفيت وطويت فهي عندهم المسؤولية الأولى والأخيرة .

أما الاسلام فقد تميز باقرار المسؤوليتين ، ولكل منهما أثره ودوره في نفس الانسان وفي المجتمع وفي نظام الكون الأصغر والأكبر . **وبين المسؤوليتين تعاون وتكامل** وإحاطة بجوانب النفس الانسانية لتوجيهها وإصلاحها وترقيتها .

واليك عرض القرآن لهذا المبدأ وهذه الفكرة :

تحدث القرآن كثيراً عن حياة اخرى وراء هذه الحياة سماها تارة (الدار الآخرة) وأحيانا (اليوم الآخر) واقتصر أحيانا على لفظ

(الآخرة) في مقابل (الاولى) و (الدنيا) وحديثه عن هذه **الآخرة** متنوع ولكن الحقيقة التي تتكرر دائماً وفي كل موضع تذكر فيه الحياة الآخرة ويلح القرآن ويؤكد في الدعوة الى الايمان بها ويكرر التذكير بها هي : **مسؤولية الانسان عن اعماله في الحياة الاولى** . حتى انه ليبدو أنها هي المقصود الاساسي من ذكر الآخرة وما فيها ومن ذكر مقدماتها السابقة لها ونتائجها وهذه بعض الآيات التي تتضمن مسؤولية الانسان في الحياة الآخرة :

(يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) « الاسراء ، آل عمران »
(ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا **الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا** أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً). « الكهف »

(يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليُروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) « الزلزلة » .

(يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) «الحاقة » .

(كل نفس بما كسبت رهينة) « المدثر » .

(علمت نفس ما قدمت وأخرت)« الانفطار »

(ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر)« القيامة » .

(ولتُسألُنّ عما كنتم تعملون) « النحل» .

(وقفوهم انهم مسؤولون) « الصافات » .

(ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) «البقرة » .

(اليوم تجزى كل نفس بما كسبت)« المؤمن » .

(وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يُجزاه الجزاءَ الأوفى) «النجم » .

وأعمال الانسان في الدنيا محصاة ومسجلة عليه كما تشير الى ذلك بعض الآيات السابقة وآيات أخرى كقوله تعالى :

(إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) «الجاثية ».

(أحصاه الله ونسوه) « المجادلة » .

(بلى ورسلنا لديهم يكتبون) « الزخرف ».

(ان رسلنا يكتبون ما تمكرون) « يونس » .

(ستكتب شهادتهم ويُسألون) « الزخرف » .

(هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) « الجاثية » .

(كل أمة تدعى الى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون) «الجاثية».

(فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه) « المجادلة » .

(أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) « الزخرف » .

فالله رقيب على أعمال عباده (ان الله كان عليكم رقيباً) « النساء » وشهيد عليهم (فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون) « يونس ».

بل ان الله يعلم ما اقترنت به الأعمال من نيات وما نخفيه أو نعلنه منها :

(يعلم ما يسرون وما يعلنون ، انه عليم بذات الصدور) « هود » .

(فينبئكم بما كنتم تعملون انه عليم بذات الصدور) « الزمر» .

(أفلا يعلم اذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور)« العاديات ».

(إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ، « البقرة » .

ان هذه المسؤولية الأخروية العظمى انما تكون أمام الله وحده فالله تعالى وحده هو الذي يسأل الناس ويحاسبهم على أعمالهم وله وحده الحكم عليهم واليه وحده المرجع والمصير فله وحده تكون العبادة وله وحده وفي سبيل مرضاته تكون الأعمال وهو وحده الذي سيحاسب عليها .

(ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون) « الزمر » .

(الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا) « لقمان » .

(له الحكم واليه ترجعون) « القصص » .

(فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب)« الرعد » .

والخطاب في هذه الآية والتي تليها للرسول :

(ما عليك من حسابهم من شيء وما عليهم من حسابك من شيء) « الانعام » .

(إن إلينا إيابهم ثم ان علينا حسابهم)« الغاشية » .

وهذه المسؤولية الأخروية أمام الله **مسؤولية فردية** شخصية بين

الانسان والله فلا يسأل فيها المرء عن خطأ غيره ولا يتحمل خطيئة أبيه وجده أو ابنه وأخيه الا بمقدار ما شارك بنفسه في الخطيئة كما تدل على ذلك الآيات التالية :

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) « النجم » .

(كل امرىء بما كسب رهين) « الطور » .

(وكلهم آتية يوم القيامة فرداً) « مريم » .

(ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) « الانعام » .

(قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون) « سبأ ».

(لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) «البقرة ».

(يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً) « لقمان » .

الحياة الآخرة :

ان هذه المسؤولية التي تحدثنا عنها والتي يؤكدها القرآن ويكررها ويغرس في النفوس الايمان والشعور القوي بها انما يجري حسابها وتقع نتائجها في حياة أخرى وراء هذه الحياة فللانسان خلال الزمن الممتد حياتان :

أولاهما : هذه التي نحس بها ونشعر بوجودنا فيها ويحيط بنا فيها عالم الشهادة او الحس ، ولهذه الحياة مقاييسها وسننها التي تجري على المؤمن والكافر والصالح وغير الصالح فالنار تحرق والماء يسقي النبات

وتسخين المعدن بسبب تمدده والغرق في الماء يميت ... وهكذا في كل أمر جعل الله له في هذا الكون الحسي – عالم الشهادة – سنة يجري عليها والانسان مهما تكن نيته وباعثه ومهما تكن عقيدته يمكن ان يستثمر هذا الكون ويستفيد من هذه السنن (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها) وأدوات الانسان في هذه الحياة المادية او الطبيعية وتسييرها وتسخيرها حواسه ودليله عقله . أما نية الانسان ودافعه الى العمل وما يقصده من خير ونفع أو شر وضرر فذلك ما يلقى بعض نتائجه في هذه الحياة ولكنه يلقى حسابه الكامل عليه في حياة أخرى وفي عالم آخر .

الحياة الآخرة : بالنسبة الى الانسان تمتد مما بعد موته اي سكون حياته الجسمية الظاهرة في مراحل تتعاقب ابتداء من انفصال الروح الانسانية عن الجسد حتى حدوث ما سماه القرآن (يوم القيامة) و (يوم البعث) و (يوم الخلود) و (يوم الدين) اي الحساب و (يوم الجمع) و (يوم الفصل) .

المرحلة الاولى : هي مرحلة ما بعد موت الانسان وقبل يوم القيامة ولم يتحدث القرآن عن هذه المرحلة الا ببعض اشارات خفيفة كالكلام عن الشهداء الذين قتلوا وهم يجاهدون في سبيل الله فقد وصفهم القرآن بانهم (احياء عند ربهم يرزقون) ولكن احاديث النبي ﷺ في وصف هذه المرحلة كثيرة ففيها وصف لقبض الارواح وسؤال الملكين وبداية العذاب للعصاة والكافرين واستشعار النعيم للصالحين المؤمنين وفي كثير من الاحاديث ما يشير الى هذه المرحلة التي سميت حياة البرزخ لأنها جسر بين الحياتين (ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون) « المؤمنون » .

ولامجال للعقل والبحث العقلي أن يصل الى معرفة حقائق هذه المرحلة ولذلك كان لابد من الرجوع الى طريق النبوة باعتباره طريق المعرفة الوحيد — وقد أرشد اليه العقل نفسه كما سبق بيان ذلك — لمعرفة المجالات الغيبية التي لايصل اليها العقل بطريق مباشر .

المرحلة الثانية مـــن هذه المراحل : هي التي يحدث فيها اضطراب النظام الكوني وفي القرآن آيات كثيرة في وصف هذه المرحلة التي تنفطر فيها السماء وما فيها وتتشقق ، وتتناثر الكواكب وتنطمس النجوم ويخسف القمر وتجتمع الشمس والقمر بعد أن بقيا متباعدين في فلكيهما لايدرك أحدهما الآخر ، وترتج الارض رجا وتدك دكا، وتنسف الجبال نسفاً حتى تصبح هباء منبثا الى غير ذلك من العلاقات التي تشير الى اختلال نظام الكون القائم واستبدال الله به نظاماً آخر غير هذا النظام المعهود .

المرحلة الثالثة : هي مرحلة بعث البشر من مراقدهم واحيائهم بعد موتهم وقيامهم بعد سكونهم وحشرهم وجمعهم بعد تفرقهم . وهذا الاحياء سماه القرآن (النشأة الآخرة) و (الخلق الجديد) والى هذا تشير آيات كثيرة منها قوله تعالى :

(والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون) « الانعام »

(وأن الله يبعث من في القبور) « الحج » .

(الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون) « الروم » .

(ونفخ في الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون) « يس » .

(يوم تشقق الارض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير) « ق » .

(ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون) « الزمر » .

(ألا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين) « المطففين » .

والمرحلة الرابعة بعد بعث الناس وحشرهم وجمعهم عرضهم على ربهم واظهار أعمالهم ونصب الموازين لوزن ما فيها من خير وشر وبيان سجل أعمالهم وحسابهم على ذلك كله وفي القرآن الكريم آيات كثيرة بهذا المعنى منها :

(وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً . ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتناما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولايظلم ربك أحداً) « الكهف ».

(ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) « الاسراء » .

(يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لوأن بينها وبينه أمداً بعيداً) « آل عمران » .

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلاتظلم نفس شيئاً) « الأنبياء » .
وسمى القرآن هذا اليوم (يوم الحساب) في آيات عديدة وذكّر به الانسان وأنذره اياه :

(إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم

الحساب) « ص » .

(وقال موسى اني عذت بربي وربكم من كل متكبر لايؤمن **بيوم الحساب**) « غافر » .

(إنهم كانوا لايرجون **حسابا** وكذّبوا بآياتنا كذّابا) « النبأ »

(ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم **الحساب**) « إبراهيم » .

(هذا ما توعدون **ليوم الحساب**) « ص » .

والمرحلة الخامسة مرحلة الجزاء وتتضمن النعيم أو السعادة والعذاب أو الشقاء :

فقد بشر القرآن المؤمنين بالله ، وبرسالات الأنبياء في كل عصر وبخاتمتها نبوة محمد ﷺ بعد ظهورها ، المتبعين لتعاليم هذه النبوات الذين يعملون الصالحات من الأعمال بنعيم خالد ، وتوعد الذين كفروا بالله وبهذه الرسالات ومن عملوا السيئات والآثام والجرائم بعذاب شديد وهذه بعض الآيات الدالة على ذلك :

(يابني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) « ٢٥ الاعراف »

(فامايأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) « ٢٨ البقرة »

(بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم

فيها خالدون والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) « ٨١ البقرة » .

ان الناس بحسب أعمالهم في هذه الحياة الدنيا هم سعداء أو أشقياء في ذلك اليوم الآخر :

(ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ، وما نؤخره إلا لأجل معدود ، يوم **يأتِ لا تكلّمُ** نفس الا باذنه فمنهم **شقي وسعيد** ، فأما الذين **شقوا** ففي النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك ان ربك فعّال لما يريد . وأما الذين سُعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) « ١٠٣ هود » . (إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم) . « الانفطار »[1] .

---

(١) ان الاساس او الشرط الأول للسعادة الأبدية او النعيم الخالد هو الايمان أي :
الايمان بالله وبرسله الذين ارسلهم وخاصة بآخر رسول يكون قد ارسل ولا بد مع هذا الايمان من **العمل الصالح** الذى يفصله القرآن احيانا ويذكر انواعه كالجهاد والزكاة والعدل والاحسان واقام الصلاة والبر الى الناس والانفاق في سبيل الله وغير ذلك من الاعمال .
(ومن **عمل صالحا** من ذكر او انثى **وهو مؤمن** فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) « المؤمن ٤٠ » .

(ومن يأته **مؤمنا قد عمل الصالحات** فأولئك لهم الدرجات العلى) « سورة طه ٧٥ »

وفقدان هذا الشرط اى الكفر بالله وبرسله وبالرسول الذى يكون قد ارسل الى قوم معينين بالنسبة اليهم وبخاتم النبيين الذى ارسل الى الناس كافة وهو محمد بن

(الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين) « سورة الحج ٥٦ » .

وقد جمعت آيات في آخر سورة الزمر هذه المراحل كلها فاستمع اليها :

(**ونفخ في الصور** فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى **فاذا هم قيام ينظرون** . وأشرقت الأرض بنور ربها **ووضع الكتاب** وجيء بالنبيين والشهداء **وقضي بينهم بالحق** وهم لا يظلمون . **ووفيت كل نفس ما عملت** وهو أعلم بما يفعلون . **وسيق الذين كفروا الى جهنم** زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم

....

عبدالله صلى الله عليه وسلم هو وحده سبب للشقاء الابدي والعذاب الخالد ولا ينفع معه اي عمل صالح.
فالذين كذبوا نبوة ابراهيم ممن دعاهم الى الايمان به كافرون وكذلك قوم نوح الذين كذبوه والمكذبون لنبوة عيسى من بني اسرائيل الذين ارسل اليهم كافرون (فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة) « الصف ١٤ » ، والمنكرون لنبوة محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم كافرون ولو كانوا مؤمنين بغيره من الأنبياء ولذلك جعل القرآن أهل الكتاب ممن لم يؤمنوا من أقسام الكافرين (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) ... « سورة البينة » .

واعمال الكافرين بالله ورسله مهما تكن صالحة لا قيمة لها في الآخرة والحياة الخالدة : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) « سورة النور ٢٩ » (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) « الفرقان ٢٣ » ولكنهم يستوفون حظهم ومكافأتهم عليها في الدنيا (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون) « هود ١٥ » .

خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا : بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة** زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ، وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) « سورة الزمر »

أما حقيقة نعيم الآخرة وعذابها والجنة ولذاتها والنار وما فيها من الآلام فسنتحدث عنها في آخر هذا الفصل .

طريق القرآن في عرض الحياة الآخرة واثباتها

للقرآن في اثبات الحياة الآخرة طريقان عقليان أحدهما مباشر وذلك ببيان إمكان الحياة الآخرة وثانيهما اخبار الأنبياء عنها بعد أن تثبت نبوتهم ويقوم الدليل المقنع عليها .

الطريق الاول : ويتضمن عدداً من المعاني والأفكار :

١ ـ يلاحظ الإنسان أن في الوجود مخلوقات لها دورات متعاقبة من الحياة . فالنبات يظهر وينمو ثم يذبل ويضمحل حتى يصبح ذرات متفرقة تختلط بالتراب حتى لا تعرف ثم يكون موسم يظهر فيه النبات كرة أخرى فلماذا لا يكون شأن البشر كذلك مع الفارق في مدة الدورة ؟

٢ ـ إذا كان الله الخالق قد خلق الإنسان في مراحل عديدة متعاقبة مذ كان نطفة إلى أن أصبح شيخاً هرماً فلماذا لا يخلقه في مرحلة تالية بعد موته ويجعله في مرحلة بعد تلك المراحل .

لقد تكررت هذه المعاني في القرآن الكريم في مواطن كثيرة من ذلك هذه الآيات من سورة الحج : وهي متضمنة للفكرتين السابقتين :

(يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم

من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وانه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور) « سورة الحج ٥ » .

وفي سورة فصلت ٣٩ :

(ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير) .

وفي سورة القيامة :

(أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوّى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) .

٣ — ومن الحجج الواردة في القرآن ان الخالق الذي استطاع أن يخلق هذا الكون ، أن يخلق الإنسان لأول مرة ويبدعه من غير سابق مثال قادر بالطبع أن يخلقه ويعيده مرة أخرى ففي سورة يس :

(وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون . اوليس الذي خلق السموات

والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) .

(وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) « سورة الروم » .

(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير) « العنكبوت » .

(كما بدأنا أول خلق نعيده) « الأنبياء ١٠٤ »

(فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة) « الاسراء ٥١ »

٤ – وقد ورد التساؤل في القرآن عن حياة الإنسان أيمكن أن تكون عبثاً بلا غاية وأن تكون سدى بلا نهائية ولا مسؤولية ولا حساب :

(أيحسب الإنسان أن يترك سدى) « القيامة » .

(أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لا ترجعون) « المؤمنون ١١٥ »

وقد تكرر في القرآن ان المرجع الى الله وان المصير اليه وان الناس كلهم ومن جملتهم الأنبياء والرسل بلا استثناء في هذا الحكم سواء ، فآدم كعيسى وموسى كمحمد وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، كلهم سيبعثون عباداً لله على مراتبهم التي جعلهم الله فيها .

وهكذا عرض القرآن الحياة الآخرة عرضاً يستسيغه العقل ودعا إلى الايمان بها دعوة تقنع غير المكابر المتعنت وصاحب الهوى والغرض ، فليس الدافع إلى إنكار الحياة الآخرة دافعاً عقلياً محضاً ، إذ ليس من

المستحيل أن يكون لهذا المخلوق الكريم – الانسان – حياة ثانية ، وما وجه الاستحالة في هذا ؟ وليس الذي قدر أن يخلق هذا الكون كله بأعاجيبه وأسراره وقوانينه وخططه وأن يخلق هذا الانسان نفسه المشتمل في جسمه وفي نفسه على ملايين القوانين المنتظمة المتكاملة المتلاقية المنسجمة ليس هذا الذي قدر على هذا عاجزاً أن يخلق حياة أخرى ونظاماً آخر للكون . ولكن الدافع الحقيقي للإنكار هو هروب الانسان من نفسه ومن ضميره ومن شعوره بالتبعة والمسؤولية على جرائمه وآثامه فيندفع ليغطي حجة العقل القوية برغبته في التنصل ورغبته في الاقبال على شهواته الآثمة ، وذلك ما عبرت عنه هذه الآيات من سورة القيامة :

(أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوّي بنانه . **بل يريد الانسان** ليفجر أمامه . يسأل أيّان يوم القيامة !

الطريق الثاني في إثبات القرآن للحياة الآخرة والجزاء :

وهو أيضاً في حقيقته طريق عقلي ولكن غير مباشر . ذلك أن القرآن دعا الى الايمان بالرسل ، وجعل لكل منهم دليلاً مقنعاً يتناسب مع عصره ، وجعل لخاتم النبيين الذي هو أول رسول يرسل إلى الناس كافة لا يختص بقوم ولا بعصر ، أدلة أبرزها معجزة القرآن في أسلوبه ومحتواه (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) ، وما اتصف به من الصدق والاستقامة وسداد التفكير والتنزه عن الغرض الشخصي وغير ذلك من الصفات التي تؤدي بمجموعها إلى ضرورة تصديقه في ادعائه الرسالة كما سبق بيانه .

فبعد أن ثبتت نبوّة النبي ، وصلته عن طريق الوحي بالله ، خالق الكون والحاكم المهيمن عليه ، بعد أن ثبت ذلك بالأدلة التي قبلها العقل لم يعد بعد ذلك مجال للتردد في قبول ما يأتي عن طريق النبوة وما يخبر به النبي ، وهو ذلك الانسان المثالي الصادق المتصل بما وراء الحس بمصدر الحقائق الأصلي بخالقها ، ولا سيما ما كان متعلقاً بعالم الغيب الذي لا مجال فيه للعقل والتفكير .

ومما أجمع على الاخبار به جميع الأنبياء وجود حياة آخرة بعد هذه الحياة ، يكون فيها الحساب والجزاء والنعيم أو العذاب والسعادة أو الشقاء ، ويكفي هذا الطريق وحده لادعاء العقل وتصديقه بهذه الحقيقة الكبرى التي التقت عندها النبوات والديانات السماوية .

وهكذا عرض القرآن الكريم الحياة الآخرة عرضاً يقنع العقل بطريق مباشر وغير مباشر ، وكثيراً ما ردد مناقشة منكري البعث والحساب ، ونقل أقوالهم ورد عليهم بإيجاز دامغ ، كقوله تعالى عن مشركي العرب :

(وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟ قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم اول مرة) « الاسراء ٤٩ » .

وكقوله على لسان المنكرين من قوم نوح :

(أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ، هيهات هيهات لما توعدون . إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن

بمبعوثين) « المؤمنون ٣٥ » .

وقال مخاطباً رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، منددأ بالمنكرين للبعث من قومه :

(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟ وقالوا **ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر** ، وما لهم بذلك من علم إن هم الا يظنون . وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) « الجاثية ٢٣ » .

تكامل الوجود :

ونريد أن نورد هنا ما ذكره بعض المفكرين في توثيق الاستدلال على الحياة الآخرة ، وهو أن البشر في حياتهم الدنيوية لا يستوفون في كثير من الأحيان جزاءهم ، فقد يموت المظلوم والبائس منهم دون أن ترفع ظلامته ويدال له من خصمه ودون أن يزال عنه البؤس ، ويموت الظالم دون أن يستقاد منه ويؤخذ منه الحق ، بينما نرى أن ظواهر هذا الوجود يكمل بعضها بعضاً حتى يتم في الكون التوازن والانسجام .

فالكون تنظمه سنن ويسير وفقاً لخطط ينسجم بعضها مع بعض ، وذلك تدبير العزيز العليم ، فلا بد ان يكون للحياة الانسانية دورة اخرى يتم فيها التوازن ، فيؤخذ للمظلوم من الظالم ويجازي الظالم على

ظلمه وينصف البائس ويعوض له عن بؤسه الذي لم يكن نتيجة خطئه او ذنبه ، وهذه الدورة الثانية هي الحيـاة الآخرة التي يقيم فيها الإله الحاكم العـدل موازين الحق وقسطاس العـدالة ، وحينئذ ينسجم هـذا الجانب من الكون مع الجوانب الاخرى في كمال وعـدل يتناسب مع صفات الإله الحكيم العادل .

العالم الاخر كما يعرضه القران والسنة :

يسأل كثير من الناس منذ أعلن القرآن ، ومن قبله الكتب المنزلة ، ومنذ أخبر الانبياء أن وراء هذه الحياة التي يعيشها الانسان حيـاة أخرى فيها الجزاء والحساب والسعـادة والشقاء والجنة والنار ، يسألون عن حقيقـة هذه الحياة وما فيها ، وعن حقيقـة الجنة وأنواع نعيمهـا وملاذها ، وعن حقيقة النار وألوان عذابها وأهوالها ، أهي حقيقة أم مجاز ؟ وهـل هي لذات وآلام معنوية تعـانيها الروح ؟ أم انها مـادية يتذوقها ويتحملها الجسم المادي نفسه ؟ ونقدم جوابنا على هذه الاسئلة في عدة أفـكار او حقائق :

أولا : إذا كان مصدر هذه الحقائق في نظرنا النبوة والوحي وكان هـذا المصدر في نظرنا موثوقـاً بدلالة العقل نفسه وإرشـاده ، ودرجة اليقين والصحة في هذه الحقائق أقوى وأوثق من الاستنتاجات العقليـة والتجارب الحسية لانها تأتي من مصدر الحقائق ومن خالق العقل والحواس إذا كان الامر كذلك فلا مجال للشك والتردد في قبول أخبارها التي لا تناقض العقل إطلاقاً بل هي في نظره ممكنة .

ثانياً : إن معرفة حقيقة ما في ذلك العالم الآخر على وجه الدقـة والتحديد متعذرة لانه عالم آخر لا مجال لمقايسته بهذا العالم المادي ولا لتطبيق سنن هذا الكون على ذلك العالم الآخر .

وفي نصوص القرآن نفسه والحديث ما يشعر ان ما ورد في وصف حقائق ذلك العالم إنما هو للتقريب وفي حدود مفاهيم الانسان وتصوراته المحدودة والمستمدة من تجاربه في هذا الكون المادي ، فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعـالى : (فلا تعلم نفس مـا أخفي لهم من قرة أعين) وورد في الحديث : ان في الجنة **ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر** .

ثالثاً : ليس في نصوص القرآن وأحاديث الرسول ما يشعر ان مـا ورد فيها من وصف الآخرة مجاز ، بل سياق الكلام وقرائنه تدل على انه حقيقـة ، بل ان نسبتها الى حقيقة هـذه الحياة المادية الكونية الدنيوية كنسبة الحقائق الحسية الى حقائق الرؤيا ، والنتيجة التي نصل اليها من جمع هاتين الملاحظتين أن كل ما ورد من وصف الجنة والنار والحياة الآخرة حقائق ، ولكنها ليست من نوع الحقائق التي عرفناها في هذه الدنيا ولا مماثلة لها ، وإنما هي حقائق متميزة ومن نوع أسمى وأعلى . وليس لنا ان نتحكم بها بعقولنا وتصوراتنا المحدودة ونزعم انها مجازات او انها روحية خالصة ، لان هذا ، بالاضافة الى انه تحكم وضيق أفق عن إمكان تصور ما لم نعتد تصوره ، ينبىء عن إنكار خفي يبطنه الانسان لأخبار النبوات وللكلام الإلهي المنزل .

رابعاً : لا موجب للنقاش في مثل هذه القضايا الغيبية التي لا سبيل

للوصول اليها عن طريق المناقشة والتفكير بل لا جدوى من البحث فيها ومناقشتها ولا ينتج عن ذلك إلا ضرر الانقسام والخلاف بين المؤمنين بالدين والنبوة أنفسهم . ومما يلاحظ ان مثل هذه الموضوعات لم تكن موضوع نقاش بين المسلمين الأولين من الصحابة والتابعين بل إنها لم تكن موضوع نقاش حتى بين المشركين والمؤمنين ، فقد كان المشركون يناقشون الأصول أي وجود الحياة الآخرة نفسها وأصل النبوة والرسالة فاذا انتقلوا إلى الايمان بالنبوة وبالمصير الاخروي آمنوا بما يستلزمه هذا الايمان من نتائج .

فما الفائدة في البحث في نوع فاكهة الجنة أو قصورها وغرفها أو عسلها ولبنها وخمرها التي لا غول فيها – كما ورد في القرآن – ولاسيما أنه ورد أنها ليست فاكهتها كفاكهتنا ولا لبنها كلبننا ، كما يدل على ذلك الحديث السابق (ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) وكأن هذه الألفاظ جاءت على مقدار عقول البشر وفي حدود تصوراتهم لتقريب صورة ما في ذلك العالم إلى أذهانهم لا بمقدار الحقيقة نفسها لقصور العقل البشري والخيال عن تصور ما لا يعرف له مثيلاً سابقاً . بل ان القرآن لم يورد من ثمار الجنة مثلاً الا ما كان يعرفه المخاطبون من العرب الذين وجه اليهم الخطاب أول ما وجه لئلا يشغلوا بالسؤال عما لا يعرفونه ولا يتصورونه [١] .

خامساً : والأمر الهام الذي ينبغي الانتباه اليه هو أن الفكرة الاساسية

---

(١) هذه الفكرة اوردها الامام الشاطبي رحمه الله في الموافقات وهذا تلخيصها .

التي رددها القرآن الكريم وكررها وألح عليها في كل موطن أشار فيه الى ذكر الآخرة هي مسؤولية الانسان عن أعماله وحساب الله له في الحياة الآخرة وهي الحقيقة المقصودة لذاتها والتي يراد منها استحضار الانسان في هذه الدنيا لحساب الله له في الآخرة واستشعاره لمراقبة الله له وعلمه بما يعمل وبما يخفي وما يعلن وما ورد من وصف اليوم الآخر وما فيه حقيقة لا ريب فيها ولكنها وسيلة لدعم الحقيقة الأولى ذلك ان الانسان مفطور على الرغبة فيما يجد فيه لذته والخوف مما يجد فيه الألم والعذاب . ولذلك وجب جعل الفكرة الاولى موضوع الاهتمام وغرسها في نفوس الابناء واليها كان التفات الصحابة لا الى السؤال عن حقيقة ما في الجنة من لذائذ ولا الى إثارة مشكلات حول هذا الموضوع ، وإنما كان هم المسلم طلب مرضاة الله والخشية منه والخوف من غضبه وعقابه ورجاء رحمته وإحسانه .

الجانب العاطفي أو النفسي من الايمان بالاخرة :

لم يقتصر ايمان المؤمنين بالحياة الآخرة على الجانب العقلي بحصول القناعة العقلية بها بل حرص الاسلام – كما يبدو للمتأمل في آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم – على تحريك العواطف وحدوث الانفعال النفسي في نفس الانسان المتفكر في مصيره فهنالك عواطف كثيرة متنوعة تحدثها دعوة القرآن الانسان الى الايمان بالآخرة وتذكرها ، منها **تصوره لمصيره الابدي** في شقاء دائم او نعيم مقيم وهذا التصور اذا كان قائما في النفس دائما أحدث **قلقاً للمصير** وسلوكا يتناسب مع رغبة الانسان في تحديد هذا المصير . والانسان مهما يكن تفكيره عالياً

وعلمه واسعاً مفطور بطبعه على الرغبة فيما يميل اليه من لذائذ مادية او معنوية والرهبة مما يسبب له الازعاج والالم والعذاب حتى بالنسبة الى المصير العاجل في هذه الحياة الدنيا .

ومن هذه العواطف — وهي أسمى من تلك التي ذكرناها — الخجل والحياء من الله الخالق المنعم ، والخشية من لقائه وحسابه، والرغبة في تجنب سخطه وغضبه وفي الوصول الى مرضاته ومحبته وهذه عواطف سامية .

وهذه العواطف كلها اذا بقيت شعلتها متوقدة في النفس كانت كل واحدة منها حافزا للانسان على العمل فيما يرضي الله وعلى السلوك الصالح في هذه الحياة . والناس يختلفون فيما يحركهم من هذه العواطف وأعلاهم من كان حافزه ارضاء الله وقد خاطب القرآن الناس على اختلاف طبقاتهم فمنهم وهم الاكثرون انما يحركهم الخوف من المصير الشقي والرغبة في المصير السعيد، ومنهم وهم الاقل من يعملون لوجه الله وإرضاء له ، وقد أشار القرآن الى هذا الفريق في عدد من الآيات منها قوله تعالى :

(ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله) « البقره ٢٠٧ » .

(وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) « الروم » .

(لاخير في كثير من نجوا هم الا من أمر بصدقة او معروف او إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما) « النساء ١١٤ » .

(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) « الكهف » .

(انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً) «الانسان » .

ومنزلة من يعمل لرضاء الله أكبر من منزلة من يعمل لنوال الجنة كما يبدو من قوله تعالى :

(وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن **ورضوان من الله اكبر** ذلك هو الفوز العظيم) « التوبة ٧٢ » .

اثر الايمان باليوم الاخر والحساب

لاشك ان لرأي الانسان في مصيره الأثر الاكبر في تحديد سلوكه فهو اشبه براكب سفينة او مشترك في رحلة يختلف سلوكه وتصرفه داخل السفينة ومدى استقراره في تلك الرحلة باختلاف الغاية والمصير . فهل يكون سلوك الانسان واحداً في حال اعتقاده بالجزاء في حياة آخرة وفي حال اعتقاده بان ليس وراء الموت شيء وانما هو الفناء المطلق . ان اعتقاد الانسان بالجزاء واستحضاره الدائم له وتصوره المستمر للمصير والجزاء ، للنعيم والشقاء الابديين ، له أثر كبير في حسن سلوكه واستقامة طريقته سواء في نفسه او مع الناس او فيما بينه وبين ربه وخالقه المنعم عليه .

ولذلك فان فكرة رعاية الآخرة والاستعداد للحساب والجزاء ، تقترن في القرآن مع كل أمر او نهي ومع كل حكم من أحكام الشريعة وكل توجيه أخلاقي وذلك كقوله تعالى في التحذير من كنز الاموال :

(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم

بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) .
« التوبة ٣٥ »

وورد في نهاية آيات الميراث :

(تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) « النساء ١٢ » .

وفي موضوع الحض على الجهاد

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) « التوبه ١١١ » .

إن الايمان بالحياة الآخرة والمسؤولية العظمى أمام الله وجزاء الأعمال يكوّن **في اعماق النفس دافعاً قوياً** الى عمل الخير ومكافحة الشر **ويكون هذا الشعور النفسي القوي ضامنا تنفيذ قواعد الاخلاق والتشريع** أقوى من الجزاء الدنيوي ومن قواعد الزجر والعقاب . ومن آثار هذا الايمان ايضاً انه يسبب **الاخلاص في العمل** فلا يكون عمل المؤمن ترقباً لمكافأة أو شكر ينتظرهما من الناس ومن المجتمع ، وسواء عليه أشكر الناس أم لم يشكروا ، أقابلوه بالاحسان أم بالعقوق فانه يعمل لوجه الله وابتغاء مرضاته وانتظاراً لحسن العاقبة في الحياة الأبدية وفقاً لما

تصفه الآية الكريمة :

(انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً) .

وقد ألح القرآن الكريم وألح الرسول العظيم صلوات الله عليه في أحاديثه على أن يؤثر المؤمن الآخرة على الدنيا وأن يفضلها عليها ويهتم بصيره فيها أكثر من اهتمامه في جلب منافع الدنيا وملذاتها واتقاء آلامها لأنها منافع عارضة ولذات وآلام موقتة ولا مقارنة بينها وبين الآخرة :

(فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل) (وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور) وطالما ندد القرآن بمن (غرتهم الحياة الدنيا) .

وأما ملذات الآخرة فخالدة ونعيمها دائم وعذابها وآلامها كذلك وتفضيل الدنيا على الآخرة سمة من سمات الكفر :

(فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى) ، « النازعات » .

(بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) . « الأعلى » .

(وويل للكافرين من عذاب شديد الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) « ابراهيم » .

(ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . وذلك بأنهم استحبوا الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين) « النحل ١٠٦ » .

وأما تفضيل السعادة الأبدية ونعيم الآخرة ومرضاة الله على الدنيا وملذاتها وآلامها وعلى إرضاء العباد رغبة بما عندهم ورهبة منهم ، فتلك سمة من سمات المؤمنين الذين يجاهدون في هذه الحياة في سبيل المثل العليا التي ترضي الله كالدفاع عن الحق وقمع الظلم والظالمين ، وإقامة العدل وإعانة الناس على الخير ومناصرة أهل الحق والضعفاء والمظلومين وذلك هو إعلاء كلمة الله . وكلمة الله تتضمن جميع أوامره ونواهيه وتشتمل على جميع ما شرع الله للناس من قواعد الاخلاق والتنظيم للعلاقات بين الناس .

واقع وتاريخ :

وان الناظر في حياة المسلمين ابتداء من المثل الانساني الأعلى والأكمل الذي هو خاتم رسل الله الى الناس محمد بن عبدالله صلوات الله عليه الى أصحابه الذين كانت خطتهم المثلى الجهاد في سبيل الله أي في سبيل المثل العليا ليرى انهم كانوا يؤثرون الحياة الآخرة ورضاء الله على كل ما في الدنيا من ملذات ومنافع وشهوات وانهم بلغوا في التضحية والايثار والاقدام والجهاد منزلة لا تكاد تضاهى ، وتصلح أن تكون قدوة ومثلاً للناس الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ويجد أن هذا الدافع المحرك والمذكر القوي الذي هو رجاء السعادة الاخروية — سواء أكانت الخلاص من عذاب النار والوصول الى نعيم الجنة أم كانت الحصول على رضاء الله أم كانت مجموعها معاً — كان سبباً في بلوغ كثير من المؤمنين من مختلف طبقات الأمة من الخلفاء والأمراء والتجار والصناع وغيرهم في جميع العصور مرتبة من المثالية لم تبلغها أمة من الأمم .

إن المؤمن لا يكترث لمشاق الحياة ولا يستغرق في ملذات الدنيا اذ يتذكر دائماً لقاءه لربه ويرجو حسن العاقبة وينتظر رحمة ربه في الحياة الآخرة انه ينظر الى الموت نظرة المطمئن الى ما بعده فلا يرهب اجتياز هذه المرحلة اذا كان محسناً ولا ييأس من رحمة الله اذا كان مؤمناً (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) ان تفضيل الحياة الآخرة على الحياة الدنيا ذو أثر كبير في توجيه سلوك الفرد وفي تكوين المجتمع وبتيجـة ذلك في توجيه الحضارة وبنائها على التعاون والايثار .

الجمع بين النظرتين :

ومزية الاسلام في هذا الميدان بالنسبة الى الأديان الأخرى انه يوجه الانسان الى الجمع بين النظرة الى الحياة الدنيا ومنافعها بل ملذاتها المشروعة المحللة والنظرة الى الحياة الآخرة والمصير النهـــائي في آن واحد بحيث يكون أوسع أفقاً من الماديين والروحيين في آن واحد والى هذا المبـدأ تشير الآيات التالية :

(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الأرض ان الله لا يحب المفسدين) « القصص ٧٧ » .

(ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) « البقرة » . (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير .)

(قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قـل هي **للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة**) « الأعراف » .

(واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة) « الأعراف ١٥٦ »[1]

ولكل من الدنيا والآخرة سننها وطريق الوصول الى أهدافهـا فمن سلك الطريق الى تلك الأهداف وصل اليها .

(ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤتـه منها) « آل عمران ١٤٥ » .

(من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيهـا وهم فيها لا يبخسون) « هود ١٥ »

ومن سلك الطريقين وصل الى أهدافه من الحياتين وجمع بين الحسنيين على أن تكون الآخرة غايته كما تشير اليه الآيات السابقة وقد امتن الله على من جمع لهم بين ثوابي الدنيا والآخرة :

(فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) « آل عمران ١٤٨ ».

ووعد بعض الناس بخيري الدنيا والآخرة :

(والذين هاجروا من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) « النحل »

(وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين) « النحل ١٢٢) .

---

(١) أما ما يتداوله الناس في هذا المعنى من القول المأثور : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، فليس بحديث وإن كان معناه صحيحاً ، وفي الحديث النبوي ما يفيد معناه وقد يكون قولاً مأثوراً عن بعض الصحابة .

وهكذا يسقط ، بالنسبة الى الاسلام وعقيدته ، اعتراض من يزعم ان الدين يدعو الى الآخرة والى اهمال العمل في الدنيا ، ويبدو البرهان العملي واضحاً في ازدهار الحضارة في جميع جوانبها المادية على أثر انتشار الاسلام مع نمو وارتقاء الحياة الخلقية والروحية والقرون الأربعة الأولى للاسلام شاهدة على ذلك ولا عبرة بما حصل في عصور الانحطاط بعد ذلك من انحراف وتشويه .

القسم الثاني

العبادة

١

يلاحظ المتأمل في تاريخ الإسلام وانتشار دعوته ان العبادة كان لها أثر كبير في نشر الاسلام وان العبّاد من الصحابة والتابعين ومن بعدهم كانوا هم الدعاة المؤثرون وان دور البحث انما أتى من بعدهم .

فقد بدأت حياة الرسول ﷺ قبل البعثة ونزول الوحي بالخلوة والتعبد في غار حراء ، وكانت العبادة تشغل جزءاً كبيرا من حياته وحياة المسلمين الاولين في بدء الدعوة ، وكان من أوائل ما نزل عليه ﷺ (قم الليل الا قليلا نصفه او انقص منه قليلا او زد عليه ورتل القرآن ترتيلا) وتشير الآية التي تلي هذه الآية الى ان هذا مقدمة لتحمل رسالة ثقيلة وتمهيد واعداد لها (انا سنلقي عليك قولا ثقيلا) .

وكان المسلمون الاولون يجتمعون ويعبدون الله في دار الارقم بن ابي الارقم . واستمر النبي ﷺ في اخذ نفسه بكثرة العبادة ، وكان قيام الليل بالنسبة اليه فرضا فرضه الله عليه وكذلك كان الدعاة الأول من كبار الصحابة يأخذون أنفسهم بالعبادة من قراءة القرآن وذكر الله والصلاة حتى كأن كثرة العبادة كانت متناسبة مع منزلة الانسان في الدعوة وقوة أثره وبلائه فيها .

ولو نظرنا وتأملنا في تاريخ انتشار الاسلام لوجدنا أن أصحاب الفضل في نشر الاسلام في آسيا وافريقيا قديما وحديثا ليسوا هم العلماء النظريين سواء أكانوا من الفقهاء او المتكلمين – اي علماء العقيدة – وانما هم الذين امتازوا من بين هؤلاء بالاشتغال بالعبادة فملأت نفوسهم حبا لله ولدعوته وحركت جوارحهم وهزت قلوبهم فسرى ذلك في محيطهم .

٢

ان العبادة في نظام الاسلام جزء اساسي لابد منه لقيامه وحسن تنفيذه **فالعبادة هي التي تجعل العقيدة الاسلامية – او التصور الاسلامي للوجود – حية في النفس وتنقلها من حيز الفكر المجرد الى حيز القلب** الذي يحس ويشعر فتجعلها بذلك قوة دافعة ، لها حرارتها ولها نورها . فشتان بين من يعلم عقليا ويقتنع فكريا بوجود الله ومن يحس ويشعر باشراقه وهيمنته عليه وبعلمه بسره وعلنه ، ويتصور تصوراً **قلبياً** حتمية لقائه وحسابه . فالعبادة في الاسلام هي الوسيلة التي تنقل الانسان من الحال الاولى الى الحال الثانية فهى **توقد جذوة العقيدة وتغذيها** وتتغذى بها وتحييها وتحيى بها .

٣

والعبادة تذكر الانسان بموقعه الحقيقى من الوجود ذلك انه لا يتذكر ولا يحس الا بالقريب العاجل والمنفعة الحاضرة فهو يتذكر جسمه ونفسه

من غيرمذكر اذ يدفعه الجوع والعطش الى الطعام والشراب وتدفعه اللذة الى الاستزادة منها وكذلك سائر غرائزه وشهواته ، ذلك في محيط نفسه. ثم يتذكر زوجته وأولاده وأهله الاقربين لقربهم الحسي منه ولشدة صلته الظاهرة بهم ولما بينه وبينهم من منافع متبادلة ومن عواطف طبيعية يحس بها ، وذلك هو محيط الاسرة والعشيرة ، ثم يأتي بعد ذلك محيط بني قومه وأهل وطنه فربما احتاج ليعرف حقيقة موقعه منهم وموقعهم منه الى التنبيه والتذكير والى الحض والتوجيه . لان الانسان فطر على الاقبال على العاجل من اللذات والقريب من المنافع وأما ما وراء ذلك من لذات ومنافع ولو كانت أكبر وأعظم فهي تقتضي منه التفاتا مقصوداً ويحتاج الى تذكير بها وتنبه وتوجه اليها . وهكذا لو سرنا في هذه الحلقات والدوائر وانتقلنا من القريب الى البعيد ومن العاجل في آثاره ونتائجه الى الآجل لوجدنا ان الانسان كلما ابتعد عن محيطه القريب وعاجله وحاضره كان أحوج الى التذكير وكلما كان وعي الانسان للبعيد الآجل قوياً كان أبعد عن الحيوانية وارفع عن مستواها وكان ارقى روحاً وعقلا .

وان الحلقة النهائية من هذه الحلقات والدائرة القصوى من هذه الدوائر المحيطة به ، هي تلك التي تحدد موقعه من الكون وخالق الكون وهي أهم تلك الحلقات وموقعه منها أهم وأسمى من موقعه من الحلقات الاخرى فهي التي تريه موقعه باعتباره جزءا من الكون والوجود ثم تريه موقعه هو والكون – باعتباره وجوداً عارضاً – من الوجود الازلي الثابت اي باعتباره مخلوقاً لخالق وخاضعاً لآمر حقيقي أعلى ومرتبطا ارتباطا دائما ومفتقرا افتقاراً مستمرا لغني عن وجود غيره ولقائم بنفسه وذاته .

ان الانسان الذي يتصف بالوعي لموقعه هذا من الوجود الاكبر هو أعلى أنواع البشر على الاطلاق وأبعدهم نظراً وأوعاهم للحقيقة الشاملة وأشملهم للأنواع الأخرى وأكثرهم إحاطة وشمولاً لحلقات الوجود .

ان العبادة في الاسلام هي الوسيلة لإحداث مثل هذا الوعي وهي الكفيلة بتوليد هذا الشعور ، ذلك لأنها هي التي تربط الانسان بالله وتجعله يتجاوز روابطه الأخرى ، رابطته بلذاته الشخصية القريبة ، ورابطته بعواطفه التي تربطه بأهله وأولاده ، ورابطته بمجتمعه وقومه وبني جنسه ، ورابطته بالبشرية وبالأرض وما فيها ، يقفز ويتجاوز هذه الحلقات حتى يصل في آخر الشوط الى رابطته العليا المحيطة بكل تلك الروابط وهي رابطته بالله الخالق الآمر المقدر .

هذه حلقات بعضها أوسع من بعض وكلها تمثل حقيقة قائمة موجودة ولكل منها في حياة الانسان موقع وكل منها تفرض عليه نوعاً من الصلات والواجبات . والاسلام لم يهمل واحدة منها بل اعتبرها جميعاً وأقرها ورتب لكل منها على الانسان واجبات ونظمها ونسق بينها تنسيقاً عادلاً بحيث لا تطغى احداها على غيرها ولا تنتقص واحدة في سبيل الاسراف في رعاية غيرها كما يتبين من نصوص القرآن والسنة فقد قال الله تعالى : (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) ، وقال النبي عليه الصلاة والسلام : (ان لجسمك عليك حقاً) وقال تعالى : (وبالوالدين احساناً) ، وقال : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) ، وقال عليه الصلاة والسلام : (ان لأهلك عليك حقاً) وقال : (الخلق كلهم

عيال الله وأحبهم اليه أنفعهم لعياله) وورد في كتاب الله : (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) .

ولكن الاسلام لم يرد أن يقف الانسان عند حلقة من هذه الحلقات فيجعلها غاية سعيه ونهاية شوطه بل ندد بمن يجعل الطعام والمتعة غايته فقال : (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) وقال في وصف هؤلاء الماديين ايضاً في آية أخرى : (يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) وقال فيهم أيضاً : (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون) وقال فيمن يقف عند هذه الحلقات من الأهل والعشيرة والأموال والمساكن دون أن يتجاوزها الى ما وراءها من الصلة بخالق الكون منددا بهم مهدداً لهم : (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكنُ ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) « التوبة ٢٤ » .

والواقع ان الانسان الذي لا ينظر إلا الى ما حوله من طعام وشراب ولذة كالحيوان الذي لا يدرك من موقعه في الوجود الا وقوفه امام المعلف يأكل ويشرب فذلك هو الانسان الذي يصنف في مرتبة الحيوان . وأرقى منه من يشعر بموقعه من أسرته وأهله ويقف عند هذا الحد فلا يعرف موقعه من قومه وبني وطنه حتى تصل بالارتقاء الى ذلك الانسان الذي يبلغ **أرقى مراتب الوعي الانساني وهو ذلك الذي يدرك ويشعر بموقعه من الكون كله ومن خالق الكون ، من الزمن الذي يعيش في حدوده ومن الحياة الخالدة** في آفاقها المترامية غير المتناهية .

٤

ومن وظائف العبادة ترقية الجانب الروحي من الانسان ذلك ان الانسان كما قدمنا في كلام سابق يتكون من عناصر عدة : الجسمي العضوي والعقلي ، والروحي . فاذا عني بتنمية جسمه بالغذاء والرياضة كان قوي الجسم ويشاركه في ذلك الحيوان بل الحيوان أكمل منه في هذا الجانب . واذا عني بتنمية الجانب العقلي بالعلوم التي تنمي ملكة العقل والتفكير بشتى ضروبه نما فيه العقل ولكن قد يكون أحط الناس خلقاً وأسوأهم هدفاً واتجاهاً مع تميزه بقوة التفكير . فكثير من اللصوص — ولا سيما في عصر المدنية — أذكياء بل متعلمون للعلوم العقلية وكذلك كثير من الجواسيس والجناة .

والواقع ان **المدنية الغربية الحاضرة** في شتى مذاهبها انما تعنى بترقية هذين الجانبين فقط الجسمي والعقلي ولذلك فانها تنتج نماذج بشرية تتميز بالصحة الجسمية والقوة وبالنشاط الفكري والمعرفة العقلية ولكنها قليلاً ما تتميز بالروح الانسانية المحبة للخير الراغبة في فعله والمتصفة بالايثار والاحسان في النطاق الانساني العام ، بل كثيراً ما نجد من هذه النماذج التي ولدتها هذه المدنية من سياسيين ومفكرين وفنانين من هم من أحط الناس نفوساً وأخسهم هدفاً وسلوكاً لا سيما لو كشف الغطاء عن حقيقة نفوسهم وأعمالهم . ذلك ان الجانب الروحي من الانسان مهمل ومغفل في هذه المدنية وكل ما نراه من أخلاق في هذه المدنية الغربية انما هو

ناشىء عن الاقتناع بضرورة التنسيق بين المنافع الفردية ومصالح مختلف الجماعات ومن هنا نشأ الكبح والردع نتيجة الضغط المتبادل بين الأفراد والجماعات أما المدنية الاسلامية فقد أنتجت نماذج في مختلف ميادين الحياة من سياسية وتجارية واجتماعية وعلمية و ... لا نجد لها نظيراً في تاريخ الحضارات الاخرى . ولو قرأت سيرة كثير من الولاة والقواد في عهد الخلفاء الراشدين – ناهيك بأمثال أبي بكر وعمر وعلي – لرأيت عجباً وللمست قمماً لم ترتق اليها البشرية إلا نادراً ونتمنى اليوم لو تصل اليها أو تقاربها من الوجهة الخلقية .

ومما تحققه العبادات الاسلامية من أهداف تقوية الانسان في معارك الحياة فالحياة في نظر الاسلام صراع بين الحق والباطل في النفس والمجتمع وعلى هذا بنيت الحياة الانسانية مذ أهبط آدم الى الأرض . والعبادة هي التي تجعل الانسان قوياً في هذه المعركة اذ تذكره بالله الدائم الباقي القوي وبمسؤوليته العظمى أمامه وبحياته الآخرة الباقية وما يترتب فيها على أعماله من جزاء فهو يعيش لا ليأكل ويشرب ولا ليلهو وينام ولا ليزرع ويجمع ولا ليسيطر ويستعلي بل ليكون نصيراً للحق على الباطل والخير على الشر والعدل على الظلم ، إن الله استخلفه وعليه أن يحسن القيام بهذه الخلافة في الأرض فالعبادة هي التي تذكره بالمعاني المثالية والتوجيهات الإلهية في هذا الصراع ، فلا يداخله الغرور اذا انتصر ، ولا الوهن اذا انهزم .

ولهذا كانت العبادة في الاسلام غير منفصلة عن الحياة ومعاركها وآفاقها بل ملازمة لها ومصلحة وموجهة لها في وجهتها الصحيحة . وليست انعزالا وفراراً من معارك الجهاد المختلفة وقد جاء في كتاب الله

(واستعينوا بالصبر والصلاة) وكان موقف الرسول الكريم صلوات الله عليه حين مر الرجل المتعبد المنصرف الى العبادة وأثنى عليه الصحابة أن سألهم من يخدمه فقالوا كلنا يا رسول الله فقال كلكم أفضل منه وكذلك نهيه بعض الصحابة الذين انصرفوا الى العبادة انصرافاً تاماً عزلهم عن الحياة اذ قال لهم : (فوالله اني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكني أصلي وأرقد وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني [1]) .

مفهوم جديد للعبادة :

ومن هنا كان للاسلام فضل عظيم في أن أسبغ على جميع أعمال الانسان صفة العبادة اذ قصد بها وجه الله ومرضاته وعملت على وجهها المشروع وكانت في سبيل تحقيق أهدافها المقصودة المشروعة . فالزارع والصانع والتاجر والطبيب والمهندس والعامل والموظف والمعلم والمتعلم وغيرهم من أصحاب الأعمال تعتبر أعمالهم عبادة اذا قصد بها نفع عباد الله والاستغناء عن الحاجة الى الناس وإعالة العيال . ومن أرفع أنواع العبادة الجهاد في سبيل الله أي في سبيل الحق والخير والعقيدة الصحيحة .

والقرآن لم يقصر وصف الصلاح على العبادات المخصوصة بل شملها لأعمال أخرى وذلك في قوله تعالى في معرض الكلام عن المجاهدين مع

---

(١) أخرجه الشيخان والنسائي .

الرسول ﷺ : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كُتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقه صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كُتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) « التوبة » .

وسئل رسول الله ﷺ ما أجر المجاهد قال لا تستطيعونه ثم قال : مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد [1] .

وفي حديث آخر : (عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله) .

ومن أمثال هذه الآيات والاحاديث يتبين ان أعمال التقوى الفردية كممارسة العبادات من صلاة وصوم وذكر ليست كافية مطلقاً لتجعل الرجل صالحاً وحدها ، وان الفرق بين المجاهد في سبيل تأسيس المجتمع الصالح الذي يريده الاسلام او الدفاع عنه والمتعبد بالعبادات الفردية كبير جداً فالأول أعلى مرتبة وأقرب الى الله .

قال تعالى : (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ، لا يستوون عند الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله

(١) أخرجه الستة إلا أبا داود .

بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً ان الله عنده أجر عظيم) « سورة التوبة » .

وورد في آية أخرى ذكر لأنواع من أعمال البر قال تعالى : (ليس البرّ ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك **الذين صدقوا** وأولئك هم المتقون) « البقرة » .

فمظاهر العبادة — كما يظهر بوضوح من الآيتين السابقتين — ليست شيئاً بالنسبة الى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس وإنفاق المال في سبل الخير وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر في الشدائد وخاصة في الحرب كل ذلك مع الايمان بالله واليوم الآخر لأن هذه العقيدة هي الأساس الذي ينبثق منه سائر الأعمال وقد ذكرت إقامة الصلاة في جملة هذه الأعمال لتحتل مكانها بينها على انها جزء ضروري من مجموعها .

لهذا كله كان الاكتفاء بالعبادات المخصوصة وحدها والاقتصار منها على مظاهرها الخارجية واغفال العمل لإقامة ذلك النظام الاجتماعي الرائع الذي جاء به الاسلام واتخاذ تلك العبادات مقياساً للصلاح والتقوى واهمال الأسباب التي سنها الله في هذا الكون ، لهذا كان كل ذلك انحرافاً عن الاسلام وتشويهاً لتميمه ومعاييره وانحطاطاً عن رسالته الشاملة وقد

شاع هذا التشويه والانحراف في بعض العصور المتأخرة وبقيت بعض آثاره عالقة ببعض المجتمعات وببعض العقول .

العبادة المخصوصة :

وعلى هذا يمكن ان تقسم العبادات الى نوعين :

أحدهما يشمل جميع أعمال الانسان المشروعة اذا ابتغى بها صاحبها وجه الله .

ثانيهما العبادة المخصوصة التي شرعت بقصد العبادة المحضة أي اظهار الخضوع لله والصدع بأمره ، وهذا النوع من العبادة هو المعروف الشائع بين الناس وهو المعروف بهذا الاسم في الأديان الأخرى .

ان للعبادة المحضة في الاسلام أنواعاً متعددة نجدها في القرآن كما نجد تفصيلها وبيانها في السنة النبوية ويمكن أن نعددها فيما يلي :

١ – ذكر الله والتفكر في آياته وآلائه :

ان التفكر في معالم الكون وآفاقه والانتقال منها الى خالقها ومبدعها وصانعها ومدبرها والى تعظيم قدرته واجلال صنعته والتعجب من حكمته والخضوع لعظمته وتذكر ذلك في أي وقت من الأوقات هو عبادة تردد ذكرها في القرآن والسنة .

وصف الله المؤمنين بقوله (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا

باطـلا سبحانك فقنا عذاب النار)

كما انه ورد الامر بذكر الله في القرآن مـرات كثـيرة كقـوله تعالى : (**فاذكروني** أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون)وقوله (**واذكر** ربك كثيرا) وقوله (وتطمئن قلوبهم **بذكر الله** ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وقوله (يا أيها الذين آمنوا **اذكروا الله** ذكرا كثيرا) كما ورد ذم الغفلة عن تذكر الله ونسيانه والنهي عن الوقوع في هذه الحـال كقوله تعالى (ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا) .

ولما كان التذكر القلبي قد يطرأ عليه في حياة الانسان نسيان بسبب مفاتن الحياة ومشاغلها وكان هذا التذكر هو الغذاء الروحي لكل نظام الاسلام بجميع أجزائه فقد عالج الاسلام ذلك علاجا صحيحا يوافـق فطرة الانسان وذلك بما شرعه الله وسنه رسوله من ذكر الله باللسان أنواعا من الذكر وفي ضروب متنوعة من الالفـاظ والتعابـير . ان في القرآن والسنة تعابير بليغة تعبر عن مختلف معاني ذكر الله كالتعبير عن ألوهية الله وحده دون غيره في كلمة (لا اله الا الله) وعن عظمته في كلمة (الله اكبر) وعن رفعة صفاته وتنزهه في قولنـا (سبحـان الله) وعن شكره على نعمه والثناء عليه في قولنا (الحمد لله) .

وورد في السنة كثير من التعابير والالفاظ الجميلة التي تتضمن ذكـر الله او ذكر صفاته او ذكر تعلق الانسان به وتوجهه اليه وأكثرها مما شرع لمناسبات معينة في صيغ منـاسبة لها كقـول من يخرج من بيتـه (بسم الله توكلت على الله اللهم إني أعوذ بك أن أضل او أضل او أزل او أزل او أجهل او يجهل علي) او كقول الانسان حينما يلبس

ثوبا جديدا (الحمد لله الذي ألبسني هذا الثوب ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة) .

وذكر الله من العبادات التي جاءت عامة مطلقة غير مقيدة في الاصل بزمان او مكان او هيئة او حركة مخصوصة فهي خالية من الشكليات « الطقوس » وانما يقصد بها انعكاس أثر اللفظ في القلب وتحريكه ولذلك أمكن ان تمارس هذه العبادات في أكثر أحوال الانسان بل في أثناء شغله وعمله سواء أكان ذلك بالقلب أم باللسان والقلب معا .

تلاوة القرآن :

وهي من أفضل أنواع الذكر لانه يتضمن جميع أنواع ذكر الله فيذكر الانسان بالله وآياته ويذكره بصفاته وآلائه، يثير في نفسه عظمته وقدرته وحكمته ورحمته وفضله واحسانه وعذابه ونعيمه . والقرآن يتضمن كثيراً من الادعية يتعلمها قارئه ويدعو بها وكثيرا من الثناء على الله وتسبيحه وتنزيهه ويحتوي على أوامر الله وأحكامه ووصاياه وتعاليمه ولهذا ورد في القرآن نفسه قوله: (فاقرؤوا ما تيسر من القرآن) وقوله (أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا) (ورتل القرآن ترتيلا) .

ووردت أحاديث في الحض على تلاوته وحفظه منها قوله عليه الصلاة والسلام (عليك بتلاوة القرآن فانه نور لك في الارض وذخر لك في

السماء)[1]. وقوله (من استمع الى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة .)[2].

والاصل في تلاوة القرآن ان تكون بفهم وتدبر وتفكر (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب) ولذلك كره ان يختم القارىء القرآن في أقل من ثلاثة أيام وفقا لحديث النبي ﷺ (لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاثة)[3] وكانت وصيته صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر الا يقرأه في أقل من سبع كما ورد في الصحيحين .

الدعاء .

هو التوجه الى الله ومناداته ومخاطبته وهو اصل معنى (دعا يدعو دعاء) في اللغة ثم اشتملت أيضاً على الطلب فالدعاء مخاطبة لله وطلب شيء يريد الانسان تحققه من أمور الدنيا او الآخرة المرغوبة المطلوبة .

واذا كان الله في غنى عن سؤال الانسان له وشرح حاله وبيان مطلوبه فان الدعاء في الحقيقة انما يفيد من يدعو اذ يوجهه الى خالقه ويرفعه عن مستوى الاسباب العادية المخلوقة وعن الاعتماد **على أمثاله من المخلوقات** اذ يربطه بخالق الاسباب ومقدرها ولذلك كان الدعاء في الاسلام لايقتضي أبدا ترك الاسباب الكونية بل

---

(١) رواه ابن حبان .

(٢) رواه احمد .

(٣) رواه ابو داود والترمذى وابن ماجه .

يجتمع معها ولا منافاة بينهما وهذا ما شرعه النبي ﷺ في حياته اذ كان يعد للأمر عدته ويهيىء له أسبابه ويدعو الله كما كان يفصل في شؤون الدعوة كعمله في الهجرة وفي حربه ومعارك جهاده فكان يتسلح ويهيىء جنده ويدبر الخطة ثم كان مع ذلك يدعو ربه كما فصل في معركة بدر مثلا ولو كان الدعاء وحده كافيا دون اتخاذ الاسباب المعتادة لكان الرسول ﷺ اولى الناس بذلك وهو القدوة المثالية في الاسلام لذلك كان ترك الاسباب والاقتصار على الدعاء مخالفا لما كان عليه النبي الكريم صلوات الله عليه وأصحابه رضي الله عنهم كما ان الاعتماد النفسي على الاسباب الكونية ونسيان مقدرها غفلة كبيرة عن الحقيقة وضيق في النظر ومادية محدودة ناقصة وظلمة في النفس .

ان الدعاء من أنواع العبادة بل ورد في الحديث (الدعاء هو العبادة) او (الدعاء مخ العبادة) .

وقد ورد في القرآن الكريم صيغ كثيرة من الادعية بليغة في تعبيرها شاملة في معناها تضمنها القرآن مشيرا بذلك الى تعلمها والدعاء بها كقوله تعالى (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) وقوله (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب) وقوله (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما) وكالدعاء الوارد في آخر البقرة [1] وفي آخر

---

(١) من قوله : « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

آل عمران[١] وهذه الادعية في القرآن كثيرة .

والقرآن يحض الانسان على دعاء الله كقوله تعالى (واذا سألك عبادى عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان) وقوله (ادعو ربكم تضرعا وخفية) (وادعوه خوفا وطمعا) (وادعوه مخلصين له الدين) كما أثنى على الذين يدعونه (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) .

وكذلك ورد في كلام النبي عليه الصلاة والسلام مع الحض على الدعاء صيغ كثيرة من أجمل ما يدعو به الانسان ومنهاما له منا سبات خاصة ومنها ما هو عام في معناه كقوله ﷺ : (اللهم أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين) وقوله : (اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي) (اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي) وقوله (اللهم اكفني هم الدنيا وعذاب الآخرة) .

وقوله (اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عمن سواك) وقوله (اللهم لاسهل الا ما جعلته سهلا وانت تجعل الحزن اذا شئت سهلا) وقوله (اللهم اني أعوذ بك من الكفر والفقر) وقوله (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال) ومنها ما سماه (سيد الاستغفار) وهو (اللهم أنت ربي لا اله الا أنت خلقتني وأنا

---

(١) في قوله تعالى : « ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد . »

عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فانه لا يغفر الذنوب الا انت) .

ويحسن الرجوع الى ما جمعه بعض العلماء من الاذكار والادعية المأثورة في الكتاب والسنة فهي أفضل ما يقال في هذا المجال وأولى مما صاغه اناس ليسوا بمعصومين مهما تكن منزلتهم في العلم والصلاح على ان كل دعاء لا يتضمن مخالفة للعقيدة الاسلامية [1] وللمفاهيم الاسلامية يجوز الدعاء به سواء أكان الذي صاغه هو الداعي نفسه او غيره وسواء اكان بالعربية ام بلغة الذي يدعو . وقد جمع الامام النووي وهو من كبار الفقهاء والمحدثين كتابا يتضمن الاذكار والادعية المأثورة ولابن تيميه رسالة في الموضوع نفسه سماها (الكلم الطيب) ولابن قيم الجوزية شرح لها سماه (الوابل الصيب في الكلم الطيب) وللشيخ حسن البنا رحمه الله رسالة جامعة على اختصارها مع توخي الصحة في أحاديثها وهي مطبوعة بعنوان (المأثورات) .

ومن أنواع الدعاء طلب الرفعة من الله لرسوله وخاتم انبيائه ومبلغ رسالة الاسلام ﷺ وذلك هو المعروف بـ (**الصلاة على النبي**) ومعنى الصلاة على فلان الدعاء له ومن ذلك الصلاة على الميت فالصلاة على النبي دعاء يطلب فيه من الله سبحانه رفعة الدرجة وعلو المقام للنبي الكريم

---

(١) من هذا النوع الذي يتضمن ما يخالف العقيدة قول صاحب دلائل الخيرات (اللهم ارحمني حتى لا تبقى رحمة) فان هذا مشعر بان رحمة الله محدودة تنفد مع ان رحمته سبحانه غير محدودة .

صلوات الله عليه والحقيقة ان هذا النوع من الدعاء يقصد به تذكير قائله بالنبي العظيم وفضله في تبليغ رسالة الله العامة الى البشر وتذكيره بسيرته العظيمة وشمائله الانسانية الرفيعة وشخصيته المثالية التي هي القدوة لكل انسان لان الله في غنى عن تذكيره بمقام الرسول الذي اختاره لاعظم رسالة ولكن القصد الارتفاع بالداعي نفسه الى مستوى أعلى وتقريبه من الشخصية المثالية التي هي شخصية الرسول صلوات الله عليه . وجعلت صيغة الصلاة هذه بديلاً من ألقاب التعظيم التي اعتاد البشر استعمالها وهي أفضل منها لأنه ليس فيها ما يشعر بتأليه بشر بل إنها تتضمن التذكير بعبودية الرسول نفسه لله لأن المخاطب فيها هو الله والمدعو له هو الرسول ﷺ والصلاة على النبي من أرفع أنواع الذكر والعبادة وردت فيها آية قرآنية (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) وهي كما تبين من الآية تتضمن جزئين وفكرتين أولاهما طلب الرفعة له من الله والثانية التسليم عليه . وقد وردت كذلك أحاديث صحيحة عديدة في الحض على الصلاة على النبي وفي جعلها في أول الدعاء وفي آخره فذلك أجدر بقبول الدعاء وهي من طرق التهذيب والتربية ومن مرققات القلب وموقظاته ففيها التذكير بالله وفيها التذكير بالاسلام كله متمثلاً بشخصية مبلغه الرسول الأعظم سيد الخلق وإمام النبيين صلوات الله وسلامه عليه .

الصلاة :

إن العبادة اليومية الأساسية في الاسلام هي (الصلاة) وهي في حقيقتها خلوة قصيرة لمناجاة الله تشتمل على تفكر وتأمل وعلى ذكر ودعاء وعلى

تلاوة للقرآن وهي وسيلة لتذكير الإنسان بربه في خلال استغراقه في الأعمال اليومية الدنيوية التي توجه ذهنه عادة الى الكسب والربح أو إلى الصلات الاجتماعية أو إلى ملذات الحياة أو متاعبها ومشاقها وهو في كل ذلك في حاجة إلى تذكيره برابطته الأساسية الباقية التي هي رابطته بالله لتخرجه من استرساله في الشهوات أو ميله إلى الظلم والشر والباطل أو من ضعفه بالنفس وشعوره بالعجز إذ تصله بمصدر القوة ومصدر الحق والخير والعدل من له الحكم واليه المصير .

تسبق الصلاة بتطهير لأطراف الجسد أو الأعضاء البارزة من الإنسان — وهي نفسها أعضاؤه التي بها يفعل الخير والشر — تطهير بالماء النظيف الطاهر يرمز إلى تطهيرها من الاثم والشر والعدوان وإذا تعذر التطهير المادي بالماء اكتفي بما يدل عليه من التطهير الرمزي بتراب الأرض النظيف الطاهر وهو ما يسمى بالتيمم [1] وتتضمن الصلاة نفسها قياماً وقعوداً وركوعاً وجلوساً وهي بمجموعها حركات طبيعية تدل على مختلف أحوال الانسان ، وليس في الصلاة في الاسلام طقوس غريبة ولا شكليات غامضة بل إنها تمتاز أيضاً بالنسبة إلى الأديان الأخرى بمزايا منها :

١ — إنها لا تختص بمكان معين فكل أرض نظيفة طاهرة صالحة للصلاة عليها فقد ورد في الحديث النبوي (جعلت لي الأرض مسجداً وطهورا) وليس المسجد الذي هو مكان الاجتماع للعبادة شرطاً لصحة الصلاة ولكنه لجمع المؤمنين في صلاة الجماعة وهو بناء عادي بسيط كسائر الأبنية .

٢ — لا تحتاج الصلاة إلى رجل خاص من رجال الدين كما هي الحال

---

(١) ومعناه في الأصل القصد والتوجه وقد اخذ هذا الاصطلاح من قوله تعالى :(فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا ...) أي توجهوا نحو أرض طيبة وامسحوا ...

في الأديان الأخرى لقيادة المصلين فكل مسلم يحسن الصلاة ويعرف كيفيتها وأحكامها يمكن أن يكون إماماً للناس في صلاة الجماعة فليس ثمة من وسيط بين الله والمصلين له كما هي الحال في الأديان الأخرى .

٣ ــ خلو الصلاة من الطلاسم والمراسم وغرائب الشعائر (الطقوس) والشكليات وتكونها من تلاوات مفهومة تدعو إلى التأمل والتفكر وتذكر الانسان بالله وحركات متناسقة طبيعية ينتقل المصلي من واحدة منها لأخرى كما يتنقل في الحياة من وجه إلى وجه ومن حال إلى حال .

لقد وردت آيات قرآنية عديدة تأمر بإقامة الصلاة وتصف المؤمنين بأنهم يقيمون الصلاة وجاءت أحاديث مشددة في أمر الصلاة ووجوب إقامتها حتى إن بعض الفقهاء فهموا منها كفر من لا يقيم الصلاة وهو أحد رأيين في المذهب الحنبلي وأجمعوا على خروج من ينكر وجوبها من دائرة الاسلام.

وهكذا أجمع المسلمون على أن ثمة صلوات مفروضة في كل يوم لا مجال لاهمالها أو التقصير فيها وهذا الحد الأدنى من الصلة بالله التي نظمها الشارع في الاسلام في الصلوات المفروضة هو الحد الذي يفصل بين الانسان الغافل اللاهي الفاقد للشعور بموقعه الحقيقي في الوجود ذلك الانسان القريب جداً من الحيوان وإن زاد عنه في ملكة التفكير ولكنه فاقد للعنصر الأسمى من إنسانيته

إن الصلاة التي تتخلل ساعات الليل والنهار فتذكر الانسان بموقعه من الكون وخالقه وتذكره برسالته في هذه الارض التي استخلفه الله فيها وبأوامر ربه التي بلغها رسوله وبالمثل العليا التي رسمها لحياته فهي تزكي أعماله وتطهر نفسه . يجب أن تتخلل الصلاة جميع أعمالنا ومنظماتنا ومؤسساتنا يجب أن تهيأ لها الفرص لاقامتها في المدرسة والثكنة والباخرة والقطار والمُخيم ومكاتب العمل ومصانع العمال ويحسب لها حسابها في ساعات

العمل وفي برامج الاجتماعات وتعلن شعائرها فيستعلن صوت المؤذن (الله أكبر) ويخفت كل صوت غيره في مواعيد الاذان ومواقيت الصلاة في ساحة الجند وصفوف الطلاب والعمال وفي المحاكم ودور الحكومة ومكاتب الموظفين والمجالس النيابية والحفلات العامة .

إن في انصراف هؤلاء جميعاً إلى الصلاة – صلاة الجماعة – معنى استعلان الروح واستعلاء المثل العليا على المال والمنصب والجاه والقوة وفيه معنى التقاء الناس على اختلاف أحوالهم المالية والاجتماعية على صعيد العبودية لله والمساواة في هذه الصفة .

والصلاة في الاسلام يمكن أن تكون فردية ويمكن أن تكون جماعية ومنها المفروض ومنها صلاة التطوع الزائدة على الفرض .

وللصلاة أحكام تفصيلية تذكر في كتب الفقه .

الصوم :

هو تخل مؤقت عن شهوات الجسد خلال النهار من قبيل الفجر إلى غروب الشمس لمدة شهر كامل وهو يعبر عن الخضوع لاحكام الله والتوقف عن الانسياق الكامل لشهوات الجسد المشروعة المحللة في الاحوال العادية فهو خروج عن العادات المألوفة والتزام موقت لحياة فيها جوع وعطش وتقشف لتربية النفس وضبطها .

إن شهر رمضان وهو الشهر الذي بدأ فيه نزول القرآن هو الشهر المخصص للصوم من بين الاشهر القمرية في كل عام ، فالصوم إعلان ثورة ضد شهوات الجسد لفترة موقتة لئلا تكون الحاكمة دائماً للانسان . وهذه العبادة تفرض على القادر عليها ويسمح للعاجز عنها كالمريض أو الذي يجد فيها مشقة

كالمسافر أن يتركها ولذلك أحكام تفصيلية في كتب الفقه .

الحج :

إن الحج نوع آخر من العبادة في الاسلام تتجلى فيه معان خاصة ليست في بقية العبادات الاخرى فهو اولاً تخل موقت عن الاهل والمال والولد والوطن ، وقصد لاول بيت بني على أساس التوحيد قبل أن يظهر أنبياء بني إسرائيل ، فقد بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وقيل انهما جددا بناءه القديم ، فليس في الحج أي تقديس وتعظيم لغير الله كما هو حال الحج الديني أو غير الديني الموجود في بعض الاديان الاخرى أو في عادات بعض الامم فلا يقصد في الحج إلا عبادة الله وحده .

وفي الحج تخل عن الزينة المعهودة المباحة في اللباس والهيئة ، وتقشف موقت يشعر الانسان بخلود صلته بالله وزوال صلته بغيره من لباس وزينة وأهل ووطن ومال ، فلباس الاحرام وهو قطعة من القماش غير المخيط يلفه الرجل حول جسمه يسقط به كل تصنيف للناس على أساس غناهم أو طبقتهم أو مكانتهم الاجتماعية ويبدو الناس أيام الحج وكأنهم خرجوا يوم الحشر بأكفانهم. وأبرز ما في الحج من أعمال :

١ — إعلان حال التقشف بالاحرام ، أي الامتناع عن الحلاقة والتطيب والزينة المباحة باتخاذ ما يستر الجسم من قماش غير مخيط والامتناع عن قتل أي حيوان إلا في حالة الاضطرار لدفع حيوان ضار لا بد من قتله لدفع ضرره .

٢ — الطواف حول البيت حين القدوم وحين الافاضة أي العودة من منى ، وهذا الطواف يرمز إلى دوران الناس حول غاية واحدة ، فالله وحده هو الغاية والبيت الذي يطوفون حوله ليس الا بيتاً من حجارة كان

تعظيمها لأنها أول بيت بني لعبادة الله ، والحجر الاسود نفسه هو الحجر الباقي من البناء القديم وهو نقطة الانطلاق في الطواف .

٣ ــ السعي بين صخرتي الصفا والمروة وهما قريبتان من الكعبة .

٤ ــ الوقوف في تاسع ذي الحجة في مكان اسمه (عرفه) للدعاء والابتهال الى الله وقضاء ليال في منى وهي تبعد عن مكة بضعة أميال وهي أقرب الى مكة من عرفة ورمي حصيات صغيرات في مواطن معروفة بالقرب من منى في أوقات مخصوصة .

ان كل هذه الأعمال التعبدية التي تجد تفصيلها في كتب الفقه تحمل معنى الخضوع لأوامر الله أولاً وترمز ثانياً الى التوجه الى الله والسعي اليه وإلى وحدة المسلمين في وجهة حركتهم واتجاه سيرهم في طوافهم وسعيهم ووحدتهم في عداوتهم للشر ومحاربتهم لأهله .

والتجرد لمعنى العبادة الخالصة واضح في الحج بالاضافة الى المعنى الاجتماعي الرائع فهو مؤتمر عالمي يجتمع المشتركون فيه على صعيد واحد لعبادة إله واحد . ومع ذلك فان هذه العبادة المتجردة الخالصة ليست منعزلة عن الحياة بل متصلة بها اذ يقول الله تعالى في كتابه الكريم : (**ليشهدوا منافع لهم** ويذكروا اسم الله في أيام معلومات) فشهود منافعهم معنى عام يمكن أن يشتمل مختلف مصالح المسلمين .

وعلى هذا ففي الحج معنى التجرد لعبادة الله وتحمل المشاق والتخلي عن كثير مما يعز على الانسان أو مما ألفه واعتاده وفيه تحقق بمعنى الانسانية الواحدة في هذه الجموع البشرية الهائلة على اختلاف أجناسها وألوانها وفي هذا الخليط الذي لا تميز فيه بين فرد وفرد ولا بين طبقة

وطبقة ولا بين لون ولون ، وجنس وجنس . والحج عبادة سنوية بالنسبة الى مجموع المسلمين ومفروضة مرة في العمر بالنسبة الى كل فرد .

عبادات أخرى :

هناك عبادات أخرى ملحقة بما تقدم كالعمرة وهي شبيهة بالحج إلا أنها تقتصر على الأحرام والطواف والسعي دون الأعمال الأخرى وكالأضحية والنذر [١] ، وأما الزكاة فهي عبادة مالية وقد عمدنا الى تجريد العبادات المحضة من الأعمال التي لها مع صفة العبادة صفة أخرى غالبة عليها كالجهاد .

خصائص العبادة الاسلامية ومزاياها :

١ — من مزايا العبادة في الاسلام انها خالصة لله وحده .

وقد أكد القرآن على حصر العبادة في الله وحده فقال : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) وقال : (أمر ألا تعبدوا إلا إياه) وقال : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) وقال : (يعبدونني لا يشركون بي شيئاً) وقال : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) . فكل أنواع العبادة من ذكر ودعاء وصلاة وذبيحة انما تكون لله ولا تجوز لغيره فلا يصلى إلا لله ولا يدعى إلا الله ولا يذبح إلا باسم الله ، وكل ما فيه معنى العبادة والتقديس المطلق

---

(١) النذر ليس عبادة أصلية أي أن الاسلام لايطلبها ابتداء ويمكن أن يعيش المسلم الكامل حياته كلها دون ان يقع منه نذر ولكن اذا نذر المسلم أي عاهد ربه على عمل طاعة وخير فعليه ان يفي به بل قد ورد في بعض الأحاديث النبوية ذم للنذر وذلك قوله عليه السلام : النذر يستخرج به مال البخيل .

فلا يكون إلا لله. ويلاحظ المتأمل في كتاب الله ان ثمة ألفاظاً خصها الله بذاته ولم يجعلها لغيره وذلك مثل قوله (حسبي الله) و (توكلت على الله) وحصر أموراً بذاته العلية ولم يشرك فيها غيره ككشف الضر واجابة دعاء المضطر (أم من **يجيب المضطر** إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون) « النمل — ٦٢ » وكغفران الذنوب كقوله : (ومن **يغفر الذنوب** إلا الله) وقوله : (إذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه) وقوله : (إذ **تستغيثون** ربكم) وكالتوكل في قوله تعالى : (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وهي كثيرة جداً .

في حين انه استعمل لفظ الطاعة والاستجابة بحق الرسول ﷺ وذلك كقوله تعالى : (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) وقوله : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) وكذلك الاستغفار وهو طلب الغفران ويلتبس على بعض العوام الفرق بين غفر واستغفر ، فغفر ويغفر لا يكون فاعله إلا الله وأما المستغفر فمعناه طلب المغفرة من الله، وكل إنسان يمكن أن يستغفر الله لنفسه ولغيره من الناس كأن يستغفر لنفسه ولوالديه وللمؤمنين ويمكن أن تطلب من انسان صالح ان يدعو الله لك ويستغفره لك وهذا معنى قوله تعالى : (سأستغفر لك ربي) وقوله : (جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً) أي استغفر الرسول لهم الله أي دعا لهم الله وطلب منه أن يغفر ذنوبهم .

ومن أجل المحافظة على هذا الأساس منع الاسلام كل ما يؤدي إلى عبادة البشر أو يفسح المجال لالتباس عبادة الله بعبادة البشر كتحريم الركوع والسجود لغير الله وتحريم الذبيحة التي ذكر عليها اسم غير الله أو جعلت لغير الله وكتحريم إشادة المساجد على قبور الأنبياء والصالحين

وتحريم تشييد القبور ورفعها وكتحريم اتخاذ التماثيل والصور للأنبياء والصالحين والعظماء وتحريم الحلف بغير الله والنذر لغير الله .

٢ — في الاسلام صلة مباشرة بين العبد وربه فلا تحتاج الى وساطة الوسطاء كما هي الحال في بعض الأديان الأخرى فليس في الاسلام رجال متميزون يؤلفون طبقة خاصة ويعرفون برجال الدين وهم الذين يتوسطون بين الناس وربهم فليس في الاسلام مثل هذه الطبقة ولكن في الاسلام علماء وفقهاء يدرسون أحكام الشريعة ويعلمونها للناس وليس لمن يؤم الناس في الصلاة صفات دينية خاصة ولا مزايا سحرية ولا طلاسم يحتكر معرفتها ولا سر خاص ينفرد به بل يستطيع أن يؤم المصلين أي مسلم يحسن معرفة دينه وخاصة الصلاة ويرضى الناس بامامته لهم وقد يكون هذا الامام أحد تجار السوق أو أحد أصحاب الحرف أو الصناعة أو غير هؤلاء . فالعبادة في الاسلام سواء أكانت صلاة أم دعاء أم صوماً أم حجاً يتوجه بها المسلم الى ربه مباشرة بلا واسطة .

وأما وظيفة الأنبياء فهي وظيفة التبليغ والتعليم والارشاد وكذلك وظيفة من سار على طريقتهم من العلماء والمرشدين فهم واسطة تعليم وإرشاد وليسوا وسطاء في مغفرة الذنوب أو كشف الكروب أو تقبل الصلوات والنذور لرفعها الى الله عن طريقهم فذلك كله شرك جاء الاسلام لمحاربته واستئصاله والتنديد بمن فعله من أهل الكتاب والمشركين.

٣ — ومن مزايا العبادة في الاسلام انها مظهر للخضوع التام لأمر الله ومظهر لطاعته طاعة مطلقة والصدع بأمره ولذلك كانت **العبادة توقيفية** يوقف بها عند الحدود التي حددها الشارع وبلغها وفعلها النبي صلوات الله عليه فلا مجال فيها للزيادة والنقصان ولا لتقييد مطلقها أو اطلاق مقيدها ولا لأي نوع من التبديل والتغيير .

فطريقة الصلاة وعددها وعدد ركعاتها وهيئاتها وأنواع ذكرها وتلاوتها لا يمكن التلاعب بها ولا تغييرها ولا الاضافة اليها ولا النقصان منها فقد قال عليه الصلاة والسلام : (صلوا كما رأيتموني أصلي) .

وكذلك الحج وأعماله فقد قال عليه الصلاة والسلام : (خذوا عني مناسككم) واذا كان الاجتهاد جائزاً في المعاملات حيث يبحث الفقهاء عن علة الحكم ويقيسون ويستنبطون ويخرجون وإذا كان الاختراع والابتداع جائزاً في أمور العادات الدنيوية كالآلات والأدوات والملابس والمآكل والمشارب — في حدود ما أباحه الله — فان ذلك غير جائز في شؤون العبادة فلا مجال فيها لاختراع ولا لابتداع ولا لاجتهاد . وأما اختلاف الفقهاء في بعض التفصيلات في العبادات فراجع الى الاختلاف في ثبوت النصوص واختلاف رواياتها .

ولذلك كان الابتداع في العبادة ممنوعاً ومذموماً فلا يجوز اختراع عبادة جديدة أو الاضافة والزيادة على عبادة مشروعة فإن هذا يؤدي مع مرور الزمن الى تغيير العبادات الاسلامية والى اختلاف المسلمين في مختلف البلدان في هذه العبادات المبتدعة فكل بلد ربما يبتدع منها غير ما يبتدعه البلد الآخر ومن الخطير ان الجيل الذي ينشأ ويتربى وقد رأى أشكالاً وأنواعاً من الشعائر والعبادات الدينية التي لا أصل لها أو التي فيها التزام لشكل أو هيئة معينة لم تكن معروفة في أصل الشرع يظن ان هذه الأشكال من العبادات التي يلتزمها أهل بلد هي من أصل الدين ويلتبس عليه الأمر .

ولنضرب أمثلة لذلك :

١) الأصل في النية أن تكون في القلب وعلى هذا لم ينقل عن

الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم التلفظ بالنية قبل الصلاة كقول القائل نويت أن أصلي لله تعالى أربع ركعات فرض الظهر وجرت هذه العادة حتى ربما ظن بعض العوام ان ذلك فرض لا يجوز تركه .

٢) أصبح من العادات المتبعة في كثير من بلاد المسلمين استئجار من يقرأ القرآن على قبر الميت أو من يقرأ على روحه القرآن عدداً من المرات ظناً منهم ان هذه العادة سنة مشروعة مع ان هذه بدعة لم تعرف في عهد السلف الأول عدا ما فيها من نشوء طبقة ترتزق ببيع القرآن وأفضل من ذلك التبرع للفقراء أو لمن يحفظ القرآن او يعلمه ومثلها كثير من العادات الدارجة بمناسبة الوفاة .

٣) ومن ذلك تخصيص يوم معين لزيارة قبر بعض الصالحين واعتقاد الصلاة عنده أو الدعاء أمامه وبالقرب منه أدعى للاستجابة مع ان الأصل انه لا يقصد قبر الصالحين للصلاة بل ان ذلك حرام بصراحة عدد من الأحاديث الصحيحة الثابتة التي تتضمن النهي عن اتخاذ المساجد على القبور أو اتخاذها عيداً كما يفعل النصارى لأن الاقتران بين الصلاة وزيارة القبر يدخل في النفس بطريقة لا شعورية ومع التكرار ومرور الزمن الاعتقاد بأن لصاحب القبر حصة ونصيباً في هذه الصلاة وان له وساطة أو مشاركة في التصرف في أمور الكون وأحوال العباد مع ان هذا لله وحده فلا يجوز اشراك أحد معه ولا يجوز التماس الاعذار للعوام في مثل هذا الموضوع لأن نتائجه هي نتائج ما وصل اليه أهل الكتاب قبلنا من الوثنية والشرك بالله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً) ، وان مشركي العرب كانوا مؤمنين بالله خالق السموات والأرض (ولئن

سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) ، ولكنهم يتعللون بقولهم : (وما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى) .

ومن أجل ما ذكرناه كره بعض الفقهاء وخاصة من المالكية المداومة على أعمال هي في الاصل مطلوبة حسنة وذلك كمتابعة صيام ست من شوال على التوالي بعد شهر رمضان فقد رأى المالكية تفريقها خشية أن يظن بعض الناس انها جزء من رمضان وكالمداومة على قراءة سورة السجدة في فجر يوم الجمعة فقد رأى بعضهم تركها احياناً للسبب نفسه .

وينتج كذلك عن كون العبادة توقيفية أنها لا تعلل بعلة فلا يعلل الوضوء بأنه من أجل النظافة ولا ان الصلاة رياضة جسمية وروحية ولا يعلل الصوم بفوائده الصحية فهذه الفوائد كلها وان كانت حاصلة ليست هي العلة في تشريع العبادة بل ان عللها خفية علينا وكل ما نصل اليه في الموضوع ان نكشف عن بعض فوائدها وحكمها وقد نصيب في استنتاجها وقد نخطىء وانما **قيامنا بالعبادة ائتمار بأمر الله وخضوع له وتنفيذ لأمره اشعاراً بعبوديتنا له** فهو الحاكم الآمر . وهذا هو معنى قول الفقهاء ان هذه الامور تعبدية اي انها ليست مربوطة بعلة ظاهرة كما هو شأن أحكام المعاملات وإنما تفعل تنفيذاً للأمر الإلهي لذلك لم يبحث الفقهاء في سبب تخصيص كل صلاة من الصلوات الخمس بعدد من الركعات ولا في تحديد مدة الصيام ولا في عدد المرات في الطواف والسعي في الحج ولا في رمي الجمرات وترتيبها وايامها . ان في العبادة معنى اساسياً لا يجوز ان يغفل عنه المؤمن ذلك ان ممارستها انما تأتي بعد الإيمان بأن الذي شرعها هو الله وان الرسول مبلغ لها ومبين

لتفاصيلها وان تنفيذها والقيام بها فيه معنى الخضوع المطلق للإله الخالق المهيمن الذي اليه يرجع الأمر كله والذي له الخلق والأمر وهو أحكم الحاكمين .

وان التزام الرسول ﷺ نفسه للعبادات المفروضة وقيامه بما يزيد عليها أيضاً من النوافل وهو سيد الخلق وإمام النبيين لدليل على ان العبادة لا يستغني عنها أحد من الناس مهما يكن شأنه ولذلك أجمع المسلمون على خروج من يسقط التكليف بالعبادات من دائرة الاسلام وحكموا بكفره وبكل النتائج المترتبة على الحكم بكفره وردته .

٤) ومن مزايا العبادة في الاسلام انها مبنية على التيسير لا على الحرج والتضييق ومن هنا كانت احكام التيمم بدلا من الوضوء او الغسل في حال اضرار الماء بالانسان واحكام المسح على الجبيرة وإفطار المريض والمسافر وقصر الصلاة في السفر والجمع بين الظهر والعصر او بين المغرب والعشاء في مواطن واحوال اختلفت فيها آراء المذاهب وكذلك الصلاة جلوسا لمن لا يستطيع الوقوف لعجز او مرض وترك الركوع والسجود للعاجز عنهما والاستعاضة عنهما بانحناء الرأس او بالايماء .

٥) والعبرة في العبادة الاسلامية بالقصد والنية الباطنية لا بمظاهر العبادة وأشكالها وان كان لا يستغنى عن اشكالها ولذلك كان **لابد من الجمع بين ظاهر العبادة وباطنها** من الأعمال التي تقوم بها الجوارح كهيئات الصلاة وأذكارها والنية المستحضرة في القلب والمقاصد التي قصدها الشارع وطلبها فقد وصف القرآن المؤمنين بقوله (الذين هم **في صلاتهم خاشعون**) وقال تعالى عن الضحية (لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى

منــــكم) وقال عليه الصلاة والسلام (كم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش) وقال تعالى (ليس البرّ ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله و . . . . وآتى المال على حبه ذوي القربي واليتامى والمساكين . . . . الخ الآية) وقد مرت في اول البحث وكذلك ذكر الله يراد به مجرد تحريك اللسان من غير استحضار للمعاني وما يتبع ذلك من نتيجة لهذا الذكر .

٦) ومن مزايا العبادة في الاسلام تعدد انواعها لمقابلة جميع فعاليات الانسان العملية والفكرية وانها متدرجة في الاخذ بيد الانسان في مدارج الرقي الروحي ابتداء من الحد الادنى الذي هو العبادات المفروضة على كل انسان الى ما لاحد له من نوافل العبادات التي يقوم بها الانسان تطوعا بحسب قدرته وامكانه بشرط الا تخل باعماله وواجباته المختلفة بالنسبة الى نفسه والى أهله وقومه فقد نهى رسول الله ﷺ عبد الله بن عمرو عن صيام الدهر وقراءة القرآن كله في ليلة واحدة اذ قال له (بحسبك ان تصوم من كل شهر ثلاثة أيام) فقال عبدالله (يا نبي الله اني اطيق افضل من ذلك) قال (فان لزوجك عليك حقا ولزورك عليك حقا ولجسدك عليك حقا ، فصم صوم داود فإنه كان أعبد الناس كان يصوم يوما ويفطر يوما واقرأ القرآن في كل شهر فقال يا نبي الله اني اطيق افضل من ذلك وكرر قوله فان لزوجك عليك حقا . . . . الـخ) « البخاري ومسلم »

وهكذا فان العبادة للخواص والعوام على السواء يأخذ كل منها بقدر حظه وقدرته الجسمية والروحية ولا يستغني أحد منهم عنها بل يرتقي كل واحد منهم بها عن المرتبة التي هو فيها في معارج الرقي الروحي بل ربما كان الخواص او من يعتبرون أنفسهم من الخواص أحوج الى العبــادة لما

يعتريهم عادة من غفلة عن عبوديتهم لله بدافع الغرور لمنزلتهم العلمية او الاجتماعية وربما كان العوام أسلم من هذا الغرور وأبعد عنه .

والخلاصة ان للعبادة في الاسلام وظيفة لا يستغنى عنها أبدا وهي أنها تربط الانسان بالله فتخلصه وتحرره بذلك من أنواع الخضوع للبشر وضروب العبوديات . وقد نشأ في كل عصر آلهة مزيفة واقام الانسان بعض قيم الحياة أحيانا أوثانا عبدها من دون الله . فقد عبد البشر في بعض العصور ملوكهم ورؤساءهم وأنبياءهم وجعل الناس في بعض الامم في عصرنا هذا من الشعب او الجماهير او من القومية او من الوطنية او من العقل او من الانسانية آلهة من دون الله ونظموا الخطط التربوية والسياسية على أساس إخضاع الفرد الانساني إخضاعا مطلقا لإحدى هذه القيم التي لكل منها موقع ووظيفة ولكنها ليست قيما مطلقة ولا غايات نهائية ولا آلهة تعبد من دون الله . وينغمس الانسان في كل حين في شهوات مختلفة ولو كانت حلالا وتشغله وتغلب على قلبه حتى تهبط به وتحول بينه وبين اقباله على ربه وسموه وارتفاعه اليه فالعبادة هي التي تحرره من هذه الغفلة وترتفع به الى مستوى أعلى وتطهر قلبه وتزكي نيته وتصفيها حتى تجعلها وتجعل أعماله خالصة لله ولذلك كانت منزلة العبادة بهذا المعنى وفي هذه الحدود ولهذه الغاية أعلى وأسمى فعاليات الانسان وأرفع أعماله لانها سبب لاصلاحها جميعا .

* * *

ونهي الكلام في العبادة بذكر بعض آيات من كلام الله في هذا الموضوع :

العبادة غاية كل النبوات :

(ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن **اعبدوا الله** واجتنبوا الطاغوت) « النحل » .

(قل أمر ربي بالقسط **واقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين** له الدين كما بدأكم تعودون) « الاعراف » .

(ألر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لـــدن حكيم خبير ، **ألا تعبدوا الا الله** انني لكم منه نذير وبشير وان **استغفروا** ربكم ثم **توبوا** اليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوْا فاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير) « هود » .

عبادة الله وحده دون اشراك شرط للنصر والتمكين :

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهـم الذي ارتضى لهـــم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا **يعبدونني لا يشركون بي شيئا**) .

وعبادة الله وحده مع العمل الصالح شرط للنجاة في الآخرة :

(فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل **عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه** أحدا) « الكهف » .

ونندد القرآن باهل الكتاب الذين قدسوا أنبياءهم وأحبارهم تقديسا يتضمن معنى العبادة :

(اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم **وما أمروا الا ليعبدوا إلها واحداً**) .

* * *

ان العبادة **تهيىء** نفس الانسان بعد ان ربطتها بخالقها وحاكمها لقبول السلوك الذي يرتضيه وتنفيذ الاوامر التي يصدرها وحمل الامانة الـــتي يحمله اياها وبذلك يتهيأ **لقبول النظام الاخلاقي والنظام التشريعي** الذي شرعه له في رسالة الاسلام ويكون عنصراً صالحاً لاقامة هذا النظام .

ومضمون النظام الاخلاقي هو موضوع بحثنا التالي بعد ان انتهينا من أساسين هامين في تكوين الانسان المسلم وهما (العقيدة) التي تضمنت حقيقة الوجود والمصير و (العبادة) التي هي الموقدة لجذوتها في النفس .

فهرست